القانون

14

اتخذ وضع الصديق واعمل كجاسوس

الحكم

إن معرفة المعلومات عن منافسك لها أهمية حساسة فاستخدم الجواسيس للحصول على معلومات قيمة تجعلك متقدماً عليه بخطوة. وأفضل من ذلك أن تؤدي دور الجاسوس بنفسك. ففي المقابلات الاجتماعية المهذبة، تعلم أن تسبر الأغوار واطرح أسئلة غير مباشرة لجعل الناس يكشفون نقاط ضعفهم ونواياهم. وليست هناك مناسبة لا تصلح كفرصة للتجسس المتقن.

obeikandl.com

مراعاة القانون

كان جوزيف دوفين بلا شك أعظم بائع في عصره، فمن سنة 1904، إلى سنة 1940، احتكر وحده تقريباً سوق جمع التحف الفنية التي يشتريها أصحاب الملايين في أميركا. ولكن كان هناك صيدٌ ممتاز نجا منه هو: الصناعي آندرو ميلون. وكان دوفين مصمماً قبل أن يموت على جعل ميلون أحد زبائنه.

وقال أصدقاء دوفين إن ذلك حلم مستحيل. فقد كان ميلون رجلاً متزمتاً صارماً صموتاً. وكانت القصص التي سمعها عن دوفين الرائق الطبع، الثرثاء تنفّر ميلون منه ـ وقد أوضح ميلون أنه لا رغبة لديه في لقاء ذلك الرجل. ومع ذلك قال دوفين لأصدقائه المتشككين: «إن ميلون لن يشتري مني فحسب، بل إنه لن يشترى إلاّ مني». وظل يتتبع أثر فريسته عدة أعوام، مستعلماً عن عادات الرجل، وأذواقه، ومخاوفه. ولتحقيق ذلك استأجر سراً عدة موظفين عند ميلون برواتب، مستخرجاً منهم معلومات قيمة. وعندما حان وقت التحرك للعمل، كان يعرف ميلون بقدر ما تعرفه زوجة ميلون.

ففي سنة 1921، كان ميلون في زيارة إلى لندن، وكان نازلاً في جناح فخم باذخ في الطابق الثالث بفندق كلاريدج، فحجز دوفين لنفسه الجناح الواقع تحت جناح ميلون بالضبط في الطابق الثاني. وكان قد رتب لخادمه الخاص أن يصادق الخادم الخاص لميلون. وفي اليوم

المصيري الذي اختاره للقيام بحركته، أخبر خادمُ ميلون خادمَ دوفين (الذي أخبر دوفين بدوره) أنه قد ساعد ميلون للتوّ على ارتداء معطفه، وأن الصناعي قد اتخذ طريقه عبر الممر ليرنّ جرس المصعد.

وبسرعة، ساعد الخادم دوفين على ارتداء معطفه هو الآخر. وبعد ثوانٍ دخل دوفين المصعد، فتظاهر بأنه فوجيء برؤية ميلون مصادفة فسلّم عليه وقدم له نفسه: «كيف حالك يا سيد ميلون؟ إنني في طريقي إلى المعرض الوطني لألقي نظرة على بعض الصور». ويا للغرابة ـ كان ذلك بالضبط هو المكان المتجه ميلون إليه كذلك. وهكذا استطاع دوفين أن يرافق فريسته إلى الموقع الوحيد الذي من شأنه أن يضمن له النجاح. وكان يعرف ذوق ميلون بكل تفاصيله، وبينما كان الرجلان يتجولان عبر أروقة المُتحف، فقد دوّخ دوفين القطبَ الصناعي بمعرفته الواسعة. ومرة أخرى وبصدفة خارقة، بدا أن ذوقيهما متشابهان تشابهاً لافتاً للنظر.

فكانت تلك مفاجأة سارة لميلون: إذ لم يكن هذا هو الـ «دوفين» الذي توقعه. بل لقد كان الرجل ساحراً وموائماً، ومن الواضح أنه له ذوقاً عذباً. وعندما عادا إلى نيويورك، قام ميلون بزيارة معرض دوفين الممتاز ووقع في غرام مجموعته. ولدهشته بدا كل شيء وكأنه بالضبط من نوع اللوحات والأعمال الفنية التي يريد اقتناءها. ولبقية حياته صار أفضل وأكرم زبون لدوفين.

التفسير

لم يكن رجل في طموح جوزيف دوفين وقدرته على المنافسة ليترك أي شيء للصدفة. فما الفائدة في الارتجال والعمل بلا تحضير، والأمل في أنك قد تستطيع اجتذاب هذا الزبون أو ذاك؟ إنه يشبه صيد البط بعينين معصوبتين. سلح نفسك بقليل من المعرفة وسيتحسن تهديفك.

كان ميلون أكبر صيد لدوفين لافت للأنظار. ولكن دوفين تجسس

على كثير من أصحاب الملايين. وبوضع موظفي زبائنه وخدم بيوتهم في خدمته سراً، كان يحصل باطراد على معلومات قيمة عن غدوات سادتهم وروحاتهم، والتغيرات في ذوقهم، ومثل هذه النتف الطازجة من المعلومات التي تجعله سابقاً بخطوة. ولقد كان هناك منافس لدوفين أراد أن يجعل هنري فريك زبوناً له، فلاحظ أنه كلما قام بزيارة لذلك الثري النيويوركي، كان يجد أن دوفين قد سبقه إليه، وكأنه يملك حاسة سادسة. وبالنسبة لبائعي التحف الفنية الآخرين، كان دوفين يبدو متواجداً في كل مكان، وكان يعلم كل شيء قبل أن يعرفوا به هم. وقد ثبطتهم قواه وأشعرتهم بالإحباط حتى تخلى كثيرون منهم ببساطة، عن مطاردة الزبائن الأثرياء الذين يستطيعون أن يجعلوا البائع غنياً.

هذه هي قوة التفنن في التجسس. إنها تجعلك تبدو كليَّ القدرة شفاف البصيرة كأنك تملك قوة التنبؤ. إن معرفتك بهدفك تجعلك آسر الجاذبية كذلك، بحيث تستطيع أن تعرف رغبات الآخرين سلفاً. ولا أحد يرى مصدر قوتك وسلطتك، وما لا يستطيع منافسوك أن يروه، لا يستطيعون أن يقاتلوه.

إن الحكام يرون من خلال الجواسيس، كما ترى الأبقار من خلال الشم، والبراهمة من خلال كتبهم وبقية الناس من خلال عيونهم العادية

(كوتيليا، فيلسوف هندي، في القرن الثالث ق.م)

مفاتيح السلطة

في مملكة السلطة، يكون هدفك قدراً من السيطرة على أحداث المستقبل. وإذن فإن جزءاً من المشكلة التي تواجهها هو أن الناس لا يرضون أن يخبروك بكل أفكارهم، وعواطفهم، وخططهم. وبسيطرتهم المتحكمة بما يقولون فإنهم كثيراً ما يحتفظون بأكثر الأجزاء حساسية من شخصيتهم مكتومة ـ كنقاط ضعفهم، ودوافعهم الخفية، وهواجسهم. والنتيجة أنك لا تستطيع أن تتنبأ بتحركاتهم، فتبقى في الظلام باستمرار.

إن الخدعة هي أن تجد طريقة لسبر أغوارهم واكتشاف أسرارهم ونواياهم الخفية دون أن تجعلهم يعرفون ما الذي تقصد إليه.

وليس هذا من الصعوبة بقدر ما تفكر. فالواجهة الودية تسمح لك بتجميع المعلومات سراً عن الأصدقاء والأعداء على حد سواء. دع الآخرين يستشيروا المنظار الفلكي، أو يبحثوا عن حظهم في ورق اللعب فإن لديك وسائل مادية ملموسة أكثر لنفاذ رؤيتك إلى المستقبل.

وأكثر طرق التجسس شيوعاً هي استخدام الآخرين، كما فعل دوفين. والأسلوب بسيط وقوي، ولكن فيه مخاطر: فأنت ستجمع المعلومات بالتأكيد، ولكن ليست لديك سيطرة على الناس الذين يقومون بالعمل. فربما كشفوا تجسسك بحمقهم، أو حتى انقلبوا عليك سراً. فمن الأفضل بكثير أن تكون أنت نفسك الجاسوس، أن تتخذ وضعية الصديق بينما أنت منهمك سراً في جمع المعلومات.

ولقد كان السياسي الفرنسي تاليران واحداً من أعظم ممارسي هذا الفن. فكانت لديه قدرة خارقة على استلال الأسرار من الناس أثناء الأحاديث العادية المهذبة. وقد كتب أحد معاصريه، وهو البارون دي فترول: «كانت الفطنة والكياسة تميزان حديثه. وكان يملك فن إخفاء أفكاره أو خبثه تحت قناع شفاف من التلميحات، والكلمات التي تومىء إلى شيء أكثر من المعنى الذي تعبِّر عنه، ولم يكن يبرز فيها شخصيته الحقيقية الخاصة إلاَّ عند الضرورة». والمفتاح هنا هو قدرة تاليران على كبت نفسه في المحادثة، وجعل الآخرين يتحدثون عن أنفسهم بصورة لا نهاية لها بحيث يكشفون نواياهم وخططهم عن غير قصد.

إذا كان لديك سبب للشك في أن شخصًا ما يحكي لك أكذوبة، فتظاهر بتصديق كل كلمة يقولها. فذلك سيشجّعه على الاستمرار، بحيث يصبح أكثر حماسًا في تأكيداته، حتى يفضح نفسه

فطوال حياة تاليران كان الناس يقولون إنه متحدث ممتاز ــ ومع ذلك فلم يكن يقول بالفعل إلاَّ أقل القليل؛ فلم يتحدث قط عن أفكاره هو.. بل كان يجعل الآخرين يكشفون أفكارهم. وكان ينظم ألعاباً ودية من الحركات الإيمائية التمثيلية للدبلوماسيين الأجانب، ولقاءات اجتماعية يقوم فيها بوزن كلماتهم بدقة وعناية، ويستخرج منهم الأسرار،

في آخر الأمر. ومرة أُخرى، إذا شعرتَ أن شخصًا ما يحاول أن يخفي عنك شيئًا ولكنه لا ينجح في ذلك إلا جزئيًا. فأظهر له أنك لا تصدّقه، فإن اعتراضك سوف يستفزّه لإخراج كل احتياطي الحقيقة وتسليط قوتها الكاملة لتضغط بثقلها على ارتيابك فيه وعدم تصديقك له.

آرثر شوبنهاور

1860-1788

فيجمع بذلك معلومات لا تقوَّم بثمن لعمله كوزير لخارجية فرنسا. وفي مؤتمر ڤيينا (1814 ـ 1815) مارس تجسسه بطرق أخرى. فكان يتفوه بشيء يبدو أنه سر (شيء يكون قد لفقه بالفعل)، ثم يراقب ردود أفعال مستمعيه. فربما أخبر تجمعاً من الدبلوماسيين مثلاً أن مصدراً موثوقاً قد كشف له أن قيصر روسيا يخطط لاعتقال أكبر جنرالاته بتهمة الخيانة. وبمراقبة ردود فعل الدبلوماسيين على هذه الحكاية المفبركة، يعرف أيهم كان أكثر تهيجاً بإضعاف الجيش الروسي؟ فلعل حكوماتهم لديها خطط تآمرية ضد روسيا؟ وكما قال البارون فون ستيتون: «يطلق السيد تاليران رصاصة مسدس في الهواء ليرى من الذي سيقفز من النافذة».

في اللقاءات الاجتماعية والتجمعات العادية البريئة، كن متنبهاً. فهذه هي الأوقات التي ينخفض فيها احتراس الناس. وبكبح شخصيتك الخاصة، تستطيع أن تجعلهم يكشفون الأشياء. وإن ذكاء المناورة البارعة هو أنهم سوف يظنون اهتمامك بهم صداقة، وبذلك فأنت لا تتعلم فحسب، بل تكسب حلفاء.

ومع ذلك ينبغي عليك أن تمارس هذا التكتيك بحذر وعناية. فإذا بدأ الناس يشكّون في أنك تستخرج منهم أسراراً تحت غطاء المحادثة، فإنهم سوف يتجنبونك بشكل صارم. ركِّز على «الدردشة» الودية، وليس على المعلومات القيمة. ولا تجعل بحثك عن جواهر المعلومات واضحاً ومكشوفاً أكثر من اللازم وإلاَّ فإن أسئلتك المتعمقة الباحثة ستكشف عن نفسك ونواياك أكثر من المعلومات التي كنت تأمل أن تجدها.

ومن بين الحيل التي يمكن تجربتها في التجسس واحدة تأتي من لاروشفوكو، الذي كتب يقول: «الإخلاص يوجد في عدد قليل من الرجال وهو غالباً من أبرع الحيل ـ فيكون المرء مخلصاً لكي يستخرج الثقة والأسرار من الشخص الآخر». فبالتظاهر بأنك تفتح قلبك لشخص آخر فإنك بعبارة أخرى تزيد من احتمال كشفه لأسراره الخاصة. أعط الآخرين اعترافاً مزوراً وسيعطونك اعترافاً حقيقياً. وهناك خدعة أخرى

حددها الفيلسوف آرثر شوبنهاور، الذي اقترح أن تناقض الناس الذين تتحدث معهم تناقضاً عنيفاً حاداً كطريقة لإزعاجهم، وتهييجهم بحيث يفقدون شيئاً من السيطرة على كلماتهم. ففي غمرة رد فعلهم العاطفي سيكشفون كل أنواع الحقائق عن أنفسهم ـ وهي حقائق يمكنك استخدامها ضدهم فيما بعد.

ومن الطرق الأخرى للتجسس غير المباشر اختبار الناس، بنصب أفخاخ صغيرة تجعلهم يكشفون أشياء عن أنفسهم. فخسرو الثاني، أحد ملوك فارس المشهورين بالذكاء والبراعة في القرن السابع، كانت لديه طرائق كثيرة يستشف من خلالها ما لدى رعاياه دون أن يثير الشكوك، فإذا لاحظ مثلاً أن اثنين من رجال حاشيته قد تقاربا وصارت علاقتهما ودية على نحو خاص، كان يستدعي أحدهما على حِدَة ليقول له إن لديه معلومات بأن الآخر خائن، وأنه سيلقى مصرعه قريباً، ثم يقول الملك لذلك الرجل إنه يثق به أكثر من أي شخص آخر، وأنه يجب أن يبقي هذه المعلومات سراً. ثم يراقب الرجلين بدقّة. فإن رأى أن رجل الحاشية الثاني لم يتغير في سلوكه تجاه الملك فإنه يستنتج بأن رجل الحاشية الأول قد كتم السر، ومن ثم يسارع إلى ترفيع ذلك الكاتم للسر، ثم يختلي به ليعترف له: «كنت أنوي قتل صديقك بسبب معلومات معينة عنه وصلتني، ولكنني عندما تحريت الأمر وجدت أن تلك المعلومات لم تكن صحيحة». ومن جهة أخرى فإذا بدأ رجل الحاشية الثاني يتجنب الملك، ويتصرف بعزلة عن غيره ويبدو متوتراً، كان خسرو يعلم أن السر قد أُفشي. فيحظر على رجل الحاشية الثاني المجيء إلى بلاطه، ويجعله يدرك أن المسألة كلها كانت اختباراً ليس إلاَّ... وأنه رغم أن الرجل لم يرتكب أي خطأ، فإنه لم يعد يثق به. غير أن رجل الحاشية الأول قد أفشى سراً ـ وهذا كان خسرو ينفيه من مملكته كلها.

وقد يبدو نوع التجسس غريباً إذا كان لا يكشف معلومات تجريبية

ميدانية، بل شخصية الإنسان. غير أنه كثيراً ما يكون أفضل طريقة لحل المشاكل قبل أن تنشأ.

إنك بإغرائك الناس بأعمال معينة تتعلم أشياء عن ولائهم وصدقهم ونزاهتهم وما إلى ذلك. وهذا النوع من المعرفة غالباً ما يكون الأثمن والأنفس. فإذا تسلحت به، فإنك تستطيع أن تتنبأ بأفعالهم في المستقبل.

صورة: عين
الجاسوس الثالثة. في أرض
ذوي العينين، تعطيك العين الثالثة
العلم الكلي لإله. فترى أبعد مما يرى
الآخرون، وترى ما في داخلهم
بطريقة أعمق. ولا يسلم أحد
من تلك العين سواك.

الشاهد: إن السبب الذي يجعل العاهل الممتاز والقائد الحكيم يهزمان العدو كلما تحركا، ويجعل إنجازاتهما تفوق إنجازات الرجال العاديّين هو علمهما المسبق بوضع العدو. وهذا «العلم المسبق» لا يمكن استدراجه من الأرواح، ولا من الآلهة، ولا من المضاهاة مع أحداث الماضي، ولا من حسابات التنجيم. بل يجب الحصول عليه من الرجال الذين يعرفون وضع العدو ــ من الجواسيس.

(صون - تزو في كتاب فن الحرب، من القرن الرابع ق.م)

الانقلاب

المعلومات حساسة الأهمية للسلطة، ولكن كما تتجسس أنت على الناس، ينبغي عليك أن تكون مستعداً لتجسسهم عليك. فمن أشد الأسلحة مضاءً في معركة المعلومات إذن، تقديم المعلومات الزائفة، وكما قال ونستون تشرشل: «إن الحقيقة نفيسة إلى درجة أنها يجب أن تكون دائماً محاطة بحراسة من الأكاذيب». فيجب عليك أن تحيط نفسك بمثل هذه الحراسة، بحيث أن حقيقتك لا تتعرض لاختراقات الغير. وبزراعتك المعلومات التي تختارها، تسيطر على اللعبة.

في سنة 1944، تصاعدت فجأة حدة الهجمات النازية بالقنابل الصاروخية على لندن. فسقطت على المدينة أكثر من ألفي قنبلة طائرة من نوع V-1، فقتلت أكثر من خمسة آلاف شخص وجرحت كثيرين آخرين. ولكن الألمان، بطريقةٍ مّا، كانوا يخطئون أهدافهم باطراد. فكانت القنابل التي تستهدف جسر البرج، أو بيكاديللي لا تصل إلى المدينة بل تسقط قبلها بكثير، في الضواحي الأقل ازدحاماً بالسكان. وكان سبب ذلك أن الألمان عند تحديد أهدافهم اعتمدوا على عملاء سريين كانوا قد زرعوهم في إنكلترا. فلم يكونوا يعلمون أن أولئك العملاء قد انكشفوا، وأنه قد حل محلهم عملاء تحت السيطرة الإنكليزية راحوا يغذون الألمان بمعلومات مخادعة جيدة التزييف.

وهكذا كانت القنابل تنزل أبعد فأبعد عن أهدافها كلما سقطت. وعند نهاية الحملة كانت تسقط على الأبقار في الريف. وإذن فإنك بتغذية الناس بمعلومات خاطئة تكسب ميزة فعالة. وبينما يمنحك التجسس عيناً ثالثة، فإن المعلومات الزائفة تطفىء واحدة من عيون عدوك. وعندما يصبح مثل السايكلوب (واحد من جيل العمالقة في الأساطير الإغريقية له عين واحدة فقط في وسط الجبين)، فإنه يخطىء هدفه على الدوام.

القانون

15

اسحق عدوك
سحقاً كلياً

الحكم

لقد عرف كل القادة العظام منذ موسى (عليه السلام) أن العدو المرهوب يجب سحقه بصورة كاملة (وكانوا يتعلمون ذلك أحياناً بالطريقة الصعبة والتجربة المريرة) فإذا تركت جمرة واحدة مشتعلة، مهما كان احتراقها داكناً خافتاً، فإن ناراً ستندلع منها في آخر الأمر. فالتوقف في وسط الطريق يؤدي إلى خسارة ما هو أكثر مما لو كانت الإبادة كلية. فالعدو سوف يتعافى وسيبحث عن الانتقام. فاسحقه، لا جسدياً فحسب بل في الروح كذلك.

obeikandl.com

انتهاك القانون

ليست هناك منافسة بين القادة في التاريخ الصيني أشهر من الصراع بين هسيانغ يو، وليو بانغ. وقد بدأ هذان القائدان حياتهما العملية كصديقين يحاربان على نفس الجبهة، وكان هسيانغ يو، ينحدر من طبقة النبلاء؛ فكان كبيراً وقويًّا، يتعرض لنوبات من العنف وحدة الطبع، وغير متقد الذكاء، ولكنه محارب جبار يُقاتل دائماً على رأس قواته. أما ليو بانغ، فكان من سلالة فلاحين، ولم يكن جندياً محترفاً، وكان يفضل النساء والشراب على القتال، والواقع أنه كان فيه شيء من صفات الوغد. ولكنه كان واسع الحيلة، وكانت لديه قدرة على معرفة أفضل المخططين الاستراتيجيين، وإبقائهم كمستشارين له، ينصت إلى نصيحتهم. وقد صعد نجمه في الجيش عن طريق نقاط القوة هذه.

إن فلول عدوٍّ ما قد تصبح فعّالة كبقايا وباء أو حريق. ومن هنا ينبغي إبادة تلك الفلول تمامًا... وعلى المرء أن لا يتجاهل عدوّاً حتى ولو كان يعرف أن ذلك العدوّ ضعيف، إذ إنه قد يصبح خطرًا بمرور الزمن، كالشرارة في كوم من الهشيم.

كوتيليا

فيلسوف هندي من القرن الثالث قبل الميلاد

وفي سنة 208 ق .م. أرسل ملك شئو جيشين كثيفين لغزو مملكة شْئِينْ القوية، فاتجه أحدهما إلى الشمال تحت القيادة العامة لصونغ ـ يي، بمساعدة هسيانغ يو. أما الجيش الثاني، بقيادة ليو بانغ، فقد اتجه مباشرة إلى شْئِينْ، وهدفه عاصمة المملكة الزاهية هسين ـ يانغ. وبما أن هسيانغ يو، كان على الدوام عنيفاً ونافذ الصبر فلم يستطع أن يستسيغ فكرة وصول ليو بانغ إلى هسين ـ يانغ قبله، وبذلك قد يتولى قيادة الجيش بأكمله.

وعند إحدى النقاط على الجبهة الشمالية، تردَّد صونغ ـ يي، قائد

هسيانغ، في إرسال قواته إلى المعركة. فثارت ثائرة هسيانغ، فدخل خيمة صونغ يي وأعلن أنه خائن، وقطع رأسه، وتسلم قيادة الجيش وحده. وبدون انتظار الأوامر غادر الجبهة الشمالية، وزحف مباشرة إلى هسين ـ يانغ. وقد شعر بالتأكيد أنه الجندي والقائد الأفضل من ليو. ولكن لذهوله المطبق، استطاع منافسه، الذي كان يقود جيشاً أصغر وأسرع، أن يصل قبله إلى هسين ـ يانغ، وكان لهسيانغ مستشار يدعى فان تسينغ، حذّره قائلاً: «إن مختار القرية هذا [ليو بانغ] لم يكن يطمع إلاَّ في الثراء والفساد، ولكنه منذ أن دخل العاصمة، لم تعد تضلله الثروة، ولا الشراب، ولا الجنس. وهذا يبيّن أنه يهدف إلى ما هو أعلى».

وحثَّ فان تسينغ، هسيانغَ على قتل منافسه قبل فوات الأوان. وأخبر القائدَ أن يدعو الفلاح المراوغ إلى مأدبة في معسكرهم خارج مدينة هسينغ ـ يانغ. وفي وسط رقصة سيوف احتفالية، يدبر عملية قطع رأسه. فأرسلت الدعوة؛ وسقط ليو في الفخ، وجاء إلى المأدبة، ولكن هسيانغ تردد في الأمر برقصة السيوف، وعندما أعطى الإشارة، كان ليو قد أحسّ بالمصيدة، واستطاع أن يهرب. وعندما رأى فان تسينغ أن هسيانغ قد أفسد الخطة، صاح: «تبًّا! إن المرء لا يستطيع أن يخطط مع ساذج. إن ليو بانغ سوف يسرق إمبراطوريتك، ويجعلنا جميعاً سجناءه».

فأدرك هسيانغ خطأه، وزحف بسرعة على مدينة هسين يانغ، وقد صمم هذه المرة على قطع رأس منافسه. ولم يكن ليو بانغ واحداً ممن يقاتلون عندما يكون ميزان القوى في غير صالحه، فترك المدينة، التي استولى عليها هسيانغ يو، واغتال أميرها الشاب شْئين، وأحرق المدينة ومسحها عن وجه الأرض. وصار ليو عدو هسيانغ اللدود، وقد طارده شهوراً عديدة، وأخيراً حصره في مدينة مسوّرة. وعندما نقص الطعام، وتمزق جيشه، طلب ليو الصلح والسلام.

ومرة أخرى حذّر فان تسينغُ، هسيانغَ: «اسحقه الآن! لأنك إذا

فخّ سينيغاليا

في يوم إعدام راميرو غادر سيزار [بورجيا] مدينة سيسيليا تاركاً جثته المقطّعة في ساحتها، وزحف جنوبًا، فوصل بعد ثلاثة أيام إلى فانو، حيث استقبل مبعوثي مدينة آنكونا، الذين أكدوا له ولاءهم. وأعلن رسول من فيتيلوزوفيتللي أن ميناء سينيغاليا الصغير على البحر الآدرياتيكي قد استسلم للكوندو تيري (الجنود المرتزقة)؛ ولم يبقَ صامدًا في وجوههم إلاّ القلعة، التي كانت تحت إمرة القائد الجنوي آندريه دوريا، الذي رفض تسليمها لأي شخص سوى سيزار نفسه. فأرسل [بورجيا] خبرًا بأنه سيصل في اليوم التالي. وكان ذلك بالضبط هو ما أراد المرتزقة أن يسمعوه. فما أن يصل سيزار إلى سينيغاليا حتى يصبح فريسة سهلة، إذْ ينحصر بين القلعة وبين قواتهم المحيطة بالمدينة. وكان المرتزقة واثقين من أنهم يملكون تفوقاً عسكريًا، معتقدين أن مغادرة القوات الفرنسية تركت سيزار مع قوة صغيرة فقط.

والحقيقة -حسبما يروي ماكيافيللي- أن [بورجيا] قد غادر سيزنيا مع عشر آلاف من المشاة، وثلاثة آلاف خيّال. واهتم اهتمامًا شديدًا بتقسيم رجاله بحيث يزحفون في طرق متوازية قبل أن يتجمعوا عند سينيغاليا. وكان سبب اصطحابه مثل هذه القوة الكبيرة هو أنه كان يعلم، من اعتراف مُنتَزَع من راميرو دي لوركا، ما الذي كان المرتزقة يخبئونه له في

تركته يفلت ثانيةً، فستندم فيما بعد». ولكن هسيانغ قرر أن يكون رحيماً. وأراد أن يعيد ليو بانغ حيّاً إلى شْنُو، وأن يرغم صديقه الأسبق على الاعتراف به سيداً. ولكن ثَبَتَ أن فان كان على حق. فقد استطاع ليو أن يستخدم مفاوضات استسلامه كأُلهيةٍ لتشتيت الانتباه، وهرب مع جيش صغير وذهل هسيانغ لأنه ترك منافسه يفلت مرة أخرى، وعاد ليطارد ليو، وهذه المرة في شراسة جعلته يبدو وكأنه فقد عقله. وفي إحدى المرات أُسر والد ليو في المعركة. فأوقف هسيانغ الرجلَ العجوز أثناء القتال، ثم صرخ على ليو عبر خط التحام القوات: «استسلم وإلاّ فسوف أغلي أباك بالماء وهو حيّ!»، فأجابه ليو بهدوء: «ولكننا أخوان كما أقسمنا، وهكذا فإن أبي هو أبوك أيضاً. فإن كنت مصراً على غلي أبيك نفسه، فأرسل لي إناءً من الحساء!»، فتراجع هسيانغ، واستمر الصراع.

وبعد بضعة أسابيع، وفي غمرة المطاردة والقنص، بعثر هسيانغ قواته بطريقة غير حكيمة. فاستطاع ليو في هجوم مفاجيء أن يطوق حاميته الرئيسية. ولأول مرة انقلبت الموائد. فصار هسيانغ هو الذي يطلب السلام. وحثَّ كبير المستشارين ليو على تدمير هْسيانغ، وسحق جيشه وعدم الرأفة به. وقال له: «إن تركه يذهب سيكون كتربية نمر، فهو سيلتهمك فيما بعد». فوافق ليو على ذلك.

فعقد معاهدة زائفة، واستدرج هسيانغ إلى الاسترخاء في دفاعه، ثم ذبح جيشه عن بكرة أبيه تقريباً؛ واستطاع هسيانغ أن يهرب. وسار وحيداً على قدميه، وهو يعلم أن ليو قد وضع جائزة على رأسه، فالتقى بمجموعة صغيرة من جنوده المتراجعين، فصرخ فيهم: «لقد سمعت أن ليو بانغ قد وضع لرأسي جائزة من ألف قطعة من الذهب، وإقطاعية من عشرة آلاف عائلة. فدعوني أُسْدِيكم معروفاً جميلاً»، ثم قطع حنجرته بنفسه ومات.

أكمامهم. ولذا فقد قرر أن يقلب فخّهم هذا عليهم. فكانت تلك تحفة الخدع التي وصفها المؤرّخ باولو جيوفيو فيما بعد بأنها «الخدعة الرائعة». ففي فجر الحادي والثلاثين من كانون الأول / ديسمبر [سنة 1502] وصل سيزار إلى ضواحي سينيغاليا... وبقيادة مسيشيلوتو كوريلا اتخذ حراس سيزار المتقدمون موقعهم على جسر القناة، وكانوا يتألفون من مئتي مقاتل مسلّحين بالرماح... وكانت النتيجة الفعلية لهذه السيطرة على الجسر أنها منعت قوات المتآمرين من الانسحاب... وحيًا سيزار المرتزقة بسخاء مبالغ فيه ودعاهم إلى الانضمام إليه... وكان ميشيلوتو قد أعدّ قصر برنادينو لاستعمال سيزار. فدعاهم الدوق إلى الداخل... وعندما صاروا في الداخل ألقي عليهم القبض بهدوء على أيدي الحراس الذين زحفوا من الخلف... وأصدر سيزار أوامره بالهجوم على جنود فيتيللي وأورسيني في المناطق الممتدة إلى الخارج... وفي تلك الليلة بينما كانت قواتهما تسحق، قام ميشيلوتو بخنف أوليفريتّو وفيتيللي في قصر برناردينو...

وبانقضاضة كاسحة مهلكة، تخلّص [بورجيا] من جنرالاته السابقين وألدّ أعدائه.

آل بورجيا

إيفان كلولاس، 1980

التفسير

أثبت هسيانغ في مناسبات عديدة أنه عديم الرحمة. ونادراً ما تردد

في القضاء على منافسٍ له إن كان ذلك يخدم أغراضه. ولكنه مع ليو بانغ تصرف على نحو مختلف. فقد كان يحترم منافسه، ولم يرد أن يدحره عن طريق الخديعة؛ بل أراد أن يثبت تفوقه في الميدان، وحتى إرغام ليو البارع على الاستسلام وعلى خدمته. وفي كل مرة وقع فيها غريمه في قبضة يديه، كان هناك شيءٌ مّا يجعله يتردد ـ كالتعاطف القاتل مع الرجل أو الاحترام له، لأنه كان بعد كل شيء صديقاً له ورفيق سلاح. ولكنْ، في اللحظة التي أوضح فيها هْسيانغ أنه ينوي القضاء على ليو، ومع ذلك فشل في تحقيق نيته، فإنه ختم على مصيره المحتوم. إذْ أن ليو لم يكن من شأنه أن يعاني من التردد نفسه إذا انقلب الوضع.

وهذا هو المصير الذي يواجهنا جميعاً عندما نتعاطف مع أعدائنا، عندما تردّنا الشفقة، أو الأمل في المصالحة، عن القضاء عليهم. وبذلك فإننا لا نفعل شيئاً سوى تقوية خوفهم منّا وكراهيتهم لنا. فقد هزمناهم، وأذللناهم، ومع ذلك نغذي هذه الصلال التي ستقتلنا ذات يوم. فالسلطة لا يمكن التعامل معها بهذه الطريقة. بل يجب محقها وسحقها وحرمانها من فرصة العودة لكي تسيطر علينا كالهاجس. إن القانون الذي يحكم العداوات القاتلة ينص على أن الصلح فيه غير وارد. فلا يمكن أن يفوز إلاّ جانب واحد، ويجب أن يفوز كلياً.

وقد تعلم ليو بانغ هذا الدرس جيداً. فبعد أن دحر هسيانغ يو، استمر ابن الفلاح هذا ليصير القائد الأعلى لجيوش شْنُو. وبعد أن سحق غريمه التالي ـ ملك شْنُو، وقائده السابق ـ توج نفسه إمبراطوراً، وهزم كل من كان في طريقه، ودخل اسمه التاريخ كواحد من أعظم حكام الصين، هَانْ كَاوْ ـ تْسُو الخالد، مؤسس سلالة هانْ

إن الذين يسعون لتحقيق أشياء ينبغي أن لا يُظْهروا أي رحمة.

(كاوتيليا، فيلسوف هندي من القرن الثالث ق.م)

مراعاة القانون

كانت وُو تشاو، المولودة في سنة 625م.، ابنة دوق. ونظراً لأنها كانت شابة جميلة ذات مفاتن عديدة، فقد تم ضمها إلى حريم الإمبراطور ثْآي تْسُونْغْ.

وكان الحريم الإمبراطوري مكاناً خطراً، مليئاً بالمحظيات الشابات المتنافسات على المكانة المفضلة لدى الإمبراطور، وقد كسبت وو هذه المعركة بسرعة بفضل جمالها وشخصيتها القوية. ولكنها كانت تعرف أن الإمبراطور، مثل الرجال الأقوياء ذوي السلطة الآخرين، إنما هو عبد لنزواته، وأن من الممكن أن يستبدل بها بسهولة، ولذا أبقت عينها مركزة على المستقبل.

واستطاعت وو أن تغوي ابن الإمبراطور الفاجر كاو تسونغ، في المناسبة الوحيدة التي استطاعت أن تجده فيها وحده: بينما كان يقضي حاجته في المرحاض الملكي. ومع ذلك فإنه عندما مات الإمبراطور وتسنم كاو تسونغ العرش، لقيت المصير الملزم بموجب التقليد والقانون لجميع زوجات الإمبراطور الراحل ومحظياته. فحُلِقَ شعرُ رأسِها وأدخلت ديراً، لما هو مفترض أن يكون بقية حياتها. وعلى مدى سبعة أعوام خططت وو لتهرب. وعن طريق الاتصال سراً بالإمبراطور الجديد، ومصادقة زوجته الإمبراطورة، استطاعت الحصول على مرسوم ملكي غير عادي أبداً يسمح لها بالعودة إلى القصر وإلى الحريم الملكي. وعند وصولها إلى هناك راحت تتودد إلى الإمبراطورة وتنام مع الأمبراطور في الوقت نفسه. ولم تثبط الإمبراطورة ذلك. فقد كان عليها أن تعطي الإمبراطور وريثاً، فكان مركزها لا يزال ضعيفاً مكشوفاً، وكانت وو حليفة ثمينة.

وفي سنة 654، ولدت وو تشاو غلاماً. وذات يوم جاءت الإمبراطورة لزيارتها، وعندما غادرت، قامت وو بخنق وليدها بنفسها. وعندما اكتُشِفَت جريمةُ الاغتيال، حامت الشبهات حول الإمبراطورة

رأساً، لأنها كانت في ذلك المكان، وكانت طبيعتها الملأى بالغيرة معروفة عند الجميع. وكانت هذه بالضبط هي خطة وو. فبعد ذلك بوقت قصير اتهمت الإمبراطورة بالقتل وأعدمت. وتُوِّجت وو إمبراطورةً في مكانها. وكان زوجها الجديد مدمناً على حياة الملذات فترك أعنة الحكم بسرور لوو تشاو، التي عرفت منذ ذلك الحين فصاعداً باسم الإمبراطورة وو.

ورغم أنها صارت في مركز قوة وسلطة كبير، لم تشعر وو أنها آمنة. فقد كان لها أعداء في كل مكان، فلم تكن تستطيع التخلي عن حذرها واحتراسها لحظة واحدة. وبالفعل، عندما كانت في الحادية والأربعين، بدأت تخشى من كون ابنة أخيها الشابة الجميلة أخذت تصبح محظية الإمبراطور المفضلة. فسممتها بقطعة كلس خلطت في طعامها. وفي سنة 675، تم تسميم ابنها نفسه أيضاً، وكان هو الوريث الظاهر المعلَن. أما الولد التالي ـ وهو الأكبر، وكان غير شرعي، ولكنه صار ولي العهد ـ فقد نفي بعد ذلك بقليل بناءً على تهم ملفقة. وعندما مات الإمبراطور في سنة 683م، تدبرت وو أمر الإعلان بأن الولد التالي لا يصلح للعرش. فكان معنى ذلك كله أن أصغر أبنائها وأقلهم تأثيراً صار هو الإمبراطور في خاتمة المطاف، وبهذه الطريقة استمرت تحكم.

وعلى امتداد السنوات الخمس التالية كانت في القصر محاولات انقلاب لا تحصى، وكلها فشلت، وأعدم المتآمرون جميعاً، وبحلول سنة 688، لم يعد هناك أحد يتحدى وو. فأعلنت نفسها سليلة سماوية لبوذا، وفي سنة 690، تحققت رغباتها في آخر الأمر فأطلق عليها لقب «إمبراطور» الصين المقدس والإلهي.

وهكذا صارت وو إمبراطورةً لأنه لم يبق أحد ـ حرفياً ـ من سلالة تآنغ السابقة. وهكذا حكمت البلاد غير منازَعة طيلة عقد من الزمن كان سلمياً إلى حد مّا. وفي سنة 705م، عندما بلغت الثمانين من عمرها، أرغمت على التنازل.

التفسير

إن كل الذين عرفوا الإمبراطورة وو تشاو، علّقوا على نشاطها وذكائها. ففي ذلك العصر لم يكن هناك أي مجد متاح لامرأة طموحة أكثر من بضع سنوات في الحريم الإمبراطوري، تليها حياة كاملة وراء أسوار الدير العالية. وأثناء صعود وو تشاو التدريجي واللافت للنظر إلى القمة لم تكن أبداً ساذجة. كانت تعرف أن أي تردد، وأي ـ ضعف ولو للحظة ـ سوف تكون فيه نهايتها. فإذا كانت كلما تخلصت من غريم ظهر غريم جديد فإن الحل كان بسيطاً: كان عليها أن تسحقهم جميعاً أو تتعرض هي نفسها للقتل. كان هناك أباطرة قبلها سلكوا الطريق ذاته إلى القمة، ولكن وو التي لم تكن لها فرصة تذكر لاكتساب السلطة لأنها امرأة ـ كان عليها أن تكون أشد منهم قسوة وانعداماً للرحمة.

فكانت فترة حكمها التي امتدت أربعين عاماً هي الأطول في تاريخ الصين. ورغم أن قصة صعودها الدامي إلى السلطة معروفة جيداً، فإنها في الصين تعتبر واحدة من أقدر حكام تلك الفترة وأكثرهم تأثيراً.

سأل قسيس، السياسي والقائد العسكري الإسباني رامون ماريا نارفايز (1800 ـ 1868): «هل تعفو يا صاحب المعالي عن أعدائك جميعاً؟» فأجاب نارفايز: «لست مضطراً لمسامحة أعدائي، لقد أرسلتهم جميعاً إلى ساحات الإعدام».

مفاتيح السلطة

ليس صدفة أن تأتي القصتان اللتان توضحان هذا القانون من الصين: فتاريخ الصين مليء بأمثلة عن الأعداء الذين تركوا أحياء، ثم عادوا ليصبحوا هاجساً يقلق الرحيم الذي تركهم. إن «سحق العدو» شعار هام وثابت واستراتيجي عند صون ـ تزو، مؤلف كتاب **فن الحرب**، الذي عاش في القرن الرابع ق .م. والفكرة بسيطة: فأعداؤك يتمنون لك الضرّ. وليس هناك ما يريدونه أكثر من إزالتك. فإذا توقفت

في منتصف الطريق في صراعك معهم، أو حتى عند ثلاثة أرباع الطريق، بسبب الرحمة أو الأمل في الصلح، فإنك لا تفعل سوى زيادة تصميمهم وزيادة شعورهم بالمرارة، وسوف ينتقمون ذات يوم. فقد يتصرفون بطريقة ودية موقتاً، ولكن سبب ذلك هو أنك هزمتهم. فلم يبق لديهم خيار سوى انتظار فرصة جديدة.

والحل: لا ترحم. اسحق أعداءك بشكل كلي كما سيسحقونك إن استطاعوا. وفي آخر الأمر، فإن السلام والأمن الوحيدين اللذين يمكنك أن تأمل في الحصول عليهما من أعدائك يكمنان في اختفاء أولئك الأعداء.

وكان ماوتسي تونغ، القارىء النهم لـ «صون ـ تزو» وللتاريخ الصيني عموماً، يعرف أهمية هذا القانون. ففي سنة 1934، هرب ذلك الزعيم الشيوعي ومعه 75000 جندي ضعيفي التجهيز إلى الجبال الموحشة الجرداء في غربي الصين للنجاة من جيش تشيانغ كاي ـ شيك الأكبر من قوات ماو بكثير، فيما سمي منذ ذلك الحين «بالمسيرة الطويلة».

وكان تشيانغ مصمماً على إزالة الشيوعيين عن آخرهم، وعند مضي سنوات قليلة لم يبق لماو سوى أقل من عشرة آلاف جندي. والواقع أنه بحلول سنة 1937، عندما قامت اليابان بغزو الصين، كانت حسابات تشيانغ تقول إن الشيوعيين لم يعودوا يشكلون تهديداً. فاختار أن يتخلى عن مطارتهم ويتفرغ للتركيز على اليابانيين. وبعد عشرة أعوام كان الشيوعيون قد استعادوا من قوتهم ما كان كافياً لإلحاق هزيمة منكرة بجيش تشيانغ. لقد نسي تشيانغ الحكمة القديمة حول سحق العدو: ولكن ماو لم ينسها. وهكذا طورد تشيانغ حتى هرب هو وجيشه بأكمله إلى جزيرة تايوان. فلم يبق شيء من نظامه على البرّ الصيني الرئيسي إلى يومنا هذا.

إن الحكمة من «سحق العدو» قديمة قدم التوراة. ولعل موسى (عليه السلام) كان أول من مارسها، فتعلمها من الله نفسه، عندما فرق البحر الأحمر لليهود، ثم ترك الماء يعود ليجري فوق المصريين

المطاردين لهم بحيث «لم يبق منهم نسمة واحدة». وعندما عاد موسى من جبل سيناء ومعه الوصايا العشر ووجد قومه يعبدون العجل الذهبي أمر بذبح المذنبين عن آخرهم. وقبل موته قال لأتباعه وهم على وشك دخول أرض كنعان في آخر الأمر إنه يجب عليهم عندما يهزمون قبائل كنعان «أن يدمروهم تدميراً كليّاً... وأن لا يقيموا معهم عهداً، وأن لا يظهروا لهم أي رحمة» (مع تحفظنا على محتويات التوراة الحالية، فهي بالنسبة للمؤلف كتاب مقدس، وبالنسبة لنا كتاب مليء بالتحريف والتزوير والأكاذيب: المترجم).

إن الهدف من النصر الكلي هو بديهية من بديهيات الحرب الحديثة. وقد قنَّنها كارل فون كلاوزفيتز، فيلسوف الحرب الأول. فعند تحليله لحملات نابليون كتب يقول: «إننا نزعم بالتأكيد أن الإبادة المباشرة لقوات العدو يجب أن تكون دائماً هي **الاعتبار المسيطر**... فعند تحقق نصر كبير يجب أن لا يكون هناك حديث عن الراحة، عن فسحة لالتقاط الأنفاس... ولكن عن المطاردة فقط، عن ملاحقة العدو مرة أخرى، والاستيلاء على عاصمته، ومهاجمة قواته الاحتياطية، وأي شيء آخر قد يمنح بلده العون والراحة». وسبب ذلك أن الحرب تليها المفاوضات وتقسيم الأراضي. فإن كنتَ لم تكسب سوى نصر جزئي، فسوف تخسر في المفاوضات حتماً ما ربحته في الحرب.

والحل بسيط: لا تترك لأعدائك أي خيارات. إمحقهم فتصبح أراضيهم ملكاً لك تقسمه كيف تشاء. إن الهدف من السلطة هو أن تسيطر على أعدائك سيطرة كاملة، وأن تخضعهم لإرادتك. فإن لم تكن لهم خيارات أخرى، فسيفعلون ما تطلب. إنك لا تستطيع أن تتوقف في منتصف الطريق. ولهذا القانون تطبيقات تتجاوز ميدان المعركة بكثير. فالمفاوضات هي الصل الخبيث الذي يقضم نصرك من أطرافه، ولذا لا تعطِ أعداءك شيئاً يتفاوضون عليه، لا أمل، ولا مجال للمناورة. بل اسحقهم وهذا هو كل شيء.

أدركْ هذا: في كفاحك لاكتساب السلطة ستثير منافسات وتخلق أعداء، وسيكون هناك أناس لا تستطيع أن تكسبهم إلى جانبك، إذْ أنهم سيبقون أعداء لك مهما يكن من أمر. ولكن أيًّا كان الجرح الذي أوقعته بهم، عن قصد أو عن غير قصد، فلا تحمل كراهيتهم لك على محمل شخصيّ. إعرف وأدرك فقط أنه لا إمكانية للسلام بينك وبينهم، خصوصاً ما دمت في السلطة. فإذا سمحت لهم بالبقاء، فسوف يسعون إلى الانتقام بتأكيد يشبه حتمية كون الليل يتبع النهار. ومن السخف أن تنتظر حتى يكشفوا أوراقهم؛ لأنه عندما يحين ذلك الوقت يكون الأوان قد فات، وهذا ما فهمته الإمبراطورة وو.

كن واقعياً: إن وجود عدو كهذا بالقرب منك، لن يجعلك تشعر بالأمن على الإطلاق. وتذكَّر درس التاريخ، وحكمة موسى وماو: وإياك أن تقطع نصف الطريق فقط.

والمسألة بالطبع ليست مسألة اغتيال، بل هي مسألة نفي. ذلك أن أعداءك عند إضعافهم بما فيه الكفاية، ثم نفيهم من بلاطك إلى الأبد، سيصبحون غير مؤذين، ولن يكون لهم أمل في استعادة عافيتهم، أو دسّ أنوفهم بطرق خبيثة أو ملتوية لزرع الشكوك وإيذائك. وإذا لم يكن بالإمكان نفيهم فافهم على الأقل أنهم يتآمرون عليك. ولا تأبه أبداً بأية مودة قد يتظاهرون بها. وسلاحك في مثل هذا الوضع هو حذرك نفسه. فإن كنت لا تستطيع نفيهم على الفور، فخطِّط لاختيار أفضل وقت للعمل والتصرف.

> صورة: الصلّ المسحوق تحت قدميك إذا تركته حياً فإنه سيرفع رأسه ويلدغك بجرعةٍ مضاعفةٍ من السم والعدو المتروك قريباً منك يشبه صلاً نصف ميت تعالجه لتعيد إليه صحته. فالزمن يجعل سمّه أقوى.

الشاهد: لأنه يجب الملاحظة أن الرجال ينبغي ملاطفتهم أو إبادتهم؛ إذ أنهم سينتقمون للأضرار الصغيرة، ولكنهم لا يستطيعون الانتقام للأضرار العظمى؛ ولذا فإن الإيذاء الذي نوقعه بشخصٍ مّا يجب أن يكون من الضخامة بحيث لا نحتاج إلى الخوف من انتقامه. (نيقولو ماكيافيللي، 1469 ـ 1527).

الانقلاب

هذا قانون ينبغي عدم تجاهله إلاَّ نادراً. ولكن يحدث أحياناً بالفعل أن يكون من الأفضل أن تترك أعداءك يدمِّرون أنفسهم إن كان ذلك ممكناً، لأنه خير من أن تجعلهم يعانون على يديك. فالقائد الجيِّد في الحرب مثلاً يعرف أنه إذا هاجم جيشاً محاصراً فإن جنود ذلك الجيش سيقاتلون بشراسة أكبر. ولذا فإن من الأفضل أن يترك لهم طريقاً للهرب، ومنفذاً يخرجون منه. لأنهم عند تراجعهم يرهقون أنفسهم، فتهبط روحهم المعنوية في آخر الأمر من التراجع أكثر مما تهبط من الهزيمة التي تلحق بهم في ميدان المعركة. فعندما تضع أناساً في موقف دفاعي ميؤوس منه ـ ولكن فقط عندما تكون متأكداً من أنهم لا يملكون أية فرصة لاستعادة عافيتهم ـ يمكنك أن تتركهم يشنقون أنفسهم. اتركهم يكونون عوامل تدمير أنفسهم بأنفسهم، فالنتيجة ستكون هي هي نفسها، ولن تشعر أنت بأي سوء.

وأخيراً فإن سحقك أعداءك سيجعلهم يشعرون بالمرارة إلى درجة أنهم يقضون سنوات وسنوات في التخطيط للانتقام. وقد كان لمعاهدة ڤرساي مثل هذا الأثر على الألمان. وقد يجادل البعض في أنه من الأفضل على المدى البعيد أن يُظْهِرَ المرء بعض اللين والرأفة. والمشكلة أن رأفتك تنطوي على مخاطرة أخرى ـ إذ أنها قد تُجَرِّئُ العدوَّ عليك، إذ أن صدره ما يزال يكنّ حقداً تفسح له الرأفة مجالاً للعمل. فمن الأحكم بشكل دائم تقريباً أن تسحق أعداءك. فإن كانوا سيخططون للانتقام بعد سنوات، فلا تجعل احتراسك يتراخى، بل اسحقهم مرة أخرى، هكذا ببساطة.

القانون

16

استخدم الغياب لزيادة الاحترام والتكريم

الحكم

إن زيادة التداول عن حده يرخص السعر: فكلما زادت مشاهدتك والسماع منك ظهرت مبتذلاً أكثر. فإذا كانت مكانتك راسخة في مجموعة مّا، فإن الانسحاب المؤقت منها يزيد الحديث عنك، وحتى الإعجاب بك. وعليك أن تتعلَّم متى تغادر. اخلق القيمة عن طريق القدرة.

obeikandl.com

انتهاك القانون ومراعاته

كان السير غليوم دي بالون من شعراء الطروبادور الجوَّالين في جنوب فرنسا في العصور الوسطى، متنقلاً من قلعة إلى قلعة مترنماً بالشعر، يلعب دور الفارس الكامل. وفي قلعة جافياك التقى بسيدة جميلة في البيت ووقع في غرامها، وهي المدام غُولِيلْما دي جافياك. وغنَّى لها أغانيه، وأنشد أشعاره، ولعب معها الشطرنج. وشيئاً فشيئاً وقعت في غرامه. وكان له صديق هو السير بيير دي بارجاك كان يسافر معه، ويُسْتَقْبَلُ في القلعة كذلك. ووقع بيير في غرام سيدة أخرى في جافياك أيضاً، هي الفاتنة فيرنيتا ذات المزاج المتقلِّب.

وذات يوم وقعت مشاجرة عنيفة بين بيير وفرنيتا. فطردته السيدة، فراح يبحث عن صديقه غليوم لرأب الصدع ومساعدته على العودة إلى الحظوة لديها. وكان غليوم على وشك مغادرة القلعة لفترة. ولكنه عند عودته استخدم سحره وأصلح ما بين بيير والسيدة. فشعر بيير أن حبه لها قد زاد عشرة أضعاف، وأنه ليس من حب في الواقع أقوى من الحب الذي يأتي بعد المصالحة. فأخبر غليومَ أنه كلما كان الخلاف قوياً وطويلاً زادت حلاوة الشعور الذي يأتي مع حلول السلام وعودة الوصال.

وكان السير غليوم، باعتباره من الطروبادور، يفتخر بأنه قد جرَّب كل مسرَّات الحب وآلامه. وعندما سمع صديقه يتكلَّم، أراد هو الآخر

الجمل والعصيّ الطافية

هرب أوَّل رجل رأى الجمل. وتجرّأ الثاني على الاقتراب منه ولكن على مسافة. وتجرّأ الثالث على وضع رسن حول رأسه... ذلك أنّ الألفة الرافعة للكلفة تجعل كل الأشياء في هذا الوجود أليفة؛ لأن ما قد يبدو رهيبًا وغريبًا يصبح عاديًا تمامًا عندما تتاح لأعيننا برهة من الزمن للتكيف. وبما أنني أتحدث في هذا الموضوع، فقد سمعت عن حراس كانوا يتّخذون مواقعهم على الساحل، فلمحوا شيئًا طافيًا من بعيد، فلم يستطيعوا أن يقاوموا صرخة من حناجرهم: «شراع! شراع! سفينة حربية قويّة!». وبعد خمس دقائق صارت قاربًا صغيرًا لنقل الركاب والبريد، ثم زورقًا صغيرًا ثم بالة، وأخيرًا بعض العصيّ الطافية التي تعبث بها الأمواج. إنني أعرف كثيرين ممّن تنطبق عليهم هذه القصة.. وهم أُناس تضخّمهم المسافة، غير أنهم عند الاقتراب منهم لا يبدون كبارًا قطّ.

الخرافات المختارة

جان دي لافونتين

1695-1621

أن يعرف نعمة الصلح بعد مشاجرة. ولذلك تصنَّع غضبة عظمى مع السيدة غوليلما، فتوقف عن إرسال رسائل الغرام إليها، وغادر القلعة فجأة وظل بعيداً، حتى أثناء الأعياد والاحتفالات ومواسم الصيد، فأدى ذلك إلى تهيج السيدة وشعورها بالوحشة.

وأرسلت غوليلما رسلاً إلى غليوم ليكتشفوا ما الذي حدث، ولكنه ردَّهم على أعقابهم، ظناً منه أن ذلك سيغضبها، ويرغمه على أن ينشد الصلح، كما فعل بيير. غير أن غيابه كان له بدلاً من ذلك أثر معاكس: فقد جعل حب غوليلما له يزيد أكثر. فراحت السيدة تطارد فارسها وتبعث له بالرسل، ورسائل الغرام. وهذا ما لم يكن أحد قد سمع به في ذلك الزمان، إذ لم تكن السيدة تطارد شاعرها. وهو شيء لم يحبه غليوم، لأن اندفاع غوليلما جعله يشعر أنها فقدت شيئاً من كرامتها. ولم يعد متأكداً من خطته، بل لم يعد متأكداً من سيدته كذلك.

وأخيراً، وبعد عدة أشهر من انقطاع أخبار غليوم، تخلَّت عنه غوليلما فلم تعد ترسل له الرسل. فبدأ يتساءل: ألعلها غاضبة؟ ولعل الخطة قد تكون نجحت بعد كل شيء؟ إن كان ذلك كذلك فهو أفضل. فلن ينتظر أكثر. لقد حان وقت المصالحة. فارتدى أفضل ثيابه، وزيَّن حصانه بأجمل سرج مزركش، واختار خوذة رائعة، ورحل إلى جافياك.

وعندما سمعت غوليلما أن حبيبها قد عاد، هرعت لتراه، وركعت أمامه، وأسقطت قناعها لتقبِّله، وتوسَّلت إليه أن يعفو عن أي زلَّة سبَّبت غضبه. ولك أن تتصوَّر ارتباكه ويأسه ــ لقد فشلت خطته فشلاً ذريعاً. فلم تكن غاضبة، بل هي لم تغضب أبداً، بل إن الفراق لم يزد حبّها إلاَّ عمقاً، وهكذا فلن يستمتع غليوم بلذة المصالحة بعد شجار. فعندما رآها ويئس من تذوّق تلك المتعة، قرَّر أن يحاول مرة أخرى. فأبعدها عنه بكلمات خشنة وإشارات تهديد. وعندئذ غادرته وقد حلفت أن لا تراه ثانيةً على الإطلاق.

وفي صباح اليوم التالي ندم الطروبادور على ما فعل. فعاد إلى

فضائل الديك الخمس

بينما كان تِئِنْ جاو يخدم الدوق آي في لُو، غضب من ضآلة منزلته لدى الدوق. فقال لسيِّده: «سأرحل بعيدًا، مثل إوزّة الثلج». فسأله

جافياك، ولكن السيدة رفضت أن تستقبله، وأوعزت إلى خدمها أن يطردوه ويبعدوه عبر جسر القلعة وإلى خلف التل. فهرب غليوم، وعندما عاد إلى غرفته انهار وشرع في البكاء: لقد ارتكب غلطة شنعاء.

وعلى مدى السنة التالية التي عجز فيها عن رؤية سيدته ذاق طعم الغياب، الغياب الرهيب الذي لا يزيد الحب إلاَّ لهيباً. فكتب واحدة من أجمل قصائده: «أغنيتي تصعد لتدعو بالرحمة» وأرسل عدة رسائل إلى غوليلما يشرح فيها ما صنع ويتوسل طالباً العفو.

وبعد الكثير من هذا وأمثاله، تذكَّرت غوليلما أغانيه الجميلة، وقوامه الوسيم، ومهاراته في الرقص وفي الصيد بالصقور، فوجدت نفسها تحنّ إلى إعادته. وكعقوبة له على قسوته، أمرته أن يقتلع ظفر الخنصر من يده اليمنى ويرسله إليها مع قصيدة تصف بؤسه وتعاساته.

ففعل ما طلبت. واستطاع غليوم في آخر الأمر أن يتذوَّق غاية المتعة. لذة صلح فاقت حتى تلك التي تذوقها صديقه بيير.

التفسير

في محاولة اكتشاف مسرَّات المصالحة، جرَّب غليوم دي بالون، عن غير قصد، صحة قانون الغياب والحضور. فعند بداية العلاقة، فإنك بحاجة إلى رفع درجة حضورك في عيون الآخر، فإذا غيَّبت نفسك في وقت مبكر أكثر من اللازم فقد تُنْسَى. ولكن عندما تنشغل بك عواطف حبيبك، وتتبلور مشاعر الحب فإن الغياب يثير ويلهب. كما أن عدم إعطاء سبب لغيابك يثير أكثر: إذ أن الآخر يفترض أن الخطأ منه (أو منها) وأثناء غيابك فإن خيال حبيبك يأخذ في التحليق، والخيال المستثار لا يمكن إلاَّ أن يجعل الحب أقوى. وعلى عكس ذلك، فكلما زادت ملاحقة غوليلما لغليوم كان حبه لها يتناقص. فقد صارت حاضرة أكثر من اللازم، وسهلة المنال أكثر من اللازم، ولم تترك مجالاً لخياله وتصوراته هو، إلى درجة أن مشاعره اختنقت. وعندما توقفت في النهاية

الدوق: «ماذا تقصد؟»، فردّ تئين جاو بقوله: «هل ترى الديك؟ إن عرفه رمز للطف والكياسة، ومخالبه القويَّة توحي بالقوَّة، وجرأته في مقاتلة أيّ عدوٍّ تدل على الشجاعة؛ وغريزته في دعوة الآخرين كلما حصل على الطعام تظهر نزعته لعمل الخير. وأخيرًا وليس آخرًا، فإن دقته في الحفاظ على مواعيد الزمن أثناء الليل تعطينا مثالاً على الصدق. غير أنه برغم هذه الفضائل الخمس، فإن الديوك تذبح يومياً لتملأ الأطباق على مائدتك. لماذا؟ لأن الديك موجود في متناول أيدينا. ومن جهة أخرى، فإن الإوزّة الثلجية تقطع في رحلة طيران واحدة ألف لي [نحو 350 ميلاً: المترجم] وعندما تستريح في حديقتك، فإنها تقتات على أسماكك وسلاحفك، وتنقر حبّات الدخن من محاصيلك، وعلى الرغم من أنها لا تملك أيّاً من فضائل الديك الخمس، فإنك تقدرها تقديرًا كبيرًا بسبب ندرتها. وبما أن الأمر كذلك، فسوف أرحل بعيدًا مثل الإوزّة الثلجية».

خرافات صينية قديمة
تحرير: يو هسيو صن، 1974

عن إرسال الرسل، استطاع أن يتنفس مرَّة أخرى، وأن يعود إلى خطته.

إن ما ينسحب، وما يصبح نادراً، يبدو فجأة أنه يستحق احترامنا وتكريمنا. أما ما يبقى مدة أطول من اللازم فيغمرنا بحضوره فإنه يجعلنا نحتقره. وفي العصور الوسطى كانت السيدات يعرِّضن فرسانهن باطراد لتجارب الحب واختباراته، فيرسلنهم في رحلات طويلة وشاقة في طلب شيءٍ مّا ـ وكل ذلك لخلق نمط من الغياب والحضور. والواقع أنه لو لم يترك غليوم سيدته بادىء الأمر فربما كانت ستضطر إلى إرساله بعيداً عنها، وبذلك تخلق غيابها بنفسها.

إن الغياب ينقص العواطف الصغيرة ويلهب العواطف الكبرى، كما تطفىء الريح الشمعة وتلهب النار.

(لاروشفوكو، 1613-1680)

مراعاة القانون

على مدى قرون كثيرة، تحكم الآشوريون بآسيا العليا بقبضة حديدية. غير أنه في القرن الثامن قبل الميلاد، ثار عليهم أهل ميديا (إيران الشمالية الغربية الآن) فتحرَّروا منهم في آخر الأمر. فكان على الميديين أن يقيموا حكومة جديدة. وقد صمَّموا على تجنّب أي شكل من أشكال الطغيان، فرفضوا إعطاء أي رجل بمفرده سُلْطةً مطلقة، أو أن يقيموا ملكية. ولكن البلد بدون قائد سرعان ما سقط في الفوضى، وتصدَّع إلى ممالك صغيرة، وراحت كل قرية تقاتل ضد القرية الأخرى.

وفي إحدى هذه القرى كان يعيش رجل يدعى ديوسيز، بدأ ينشىء لنفسه سمعة بمعاملته المنصفة وقدرته على حل المنازعات.

وقد بلغ من نجاحه في ذلك في الحقيقة أنه سرعان ما صار يحال إليه أي نزاع قانوني ينشب في المنطقة. فتزايدت سلطته. وفي جميع أرجاء المنطقة كانت سمعة القانون قد انحطت ـ إذْ أنَّ القضاة كانوا فاسدين، ولم يعد أحد يعهد بقضيته إلى المحاكم، بل يلجأ إلى العنف

بدلاً من ذلك. وعندما شاعت أخبار حكمة ديوسيز، وعدم فساده، وحياده الذي لا يتزعزع، راحت القرى في أقاصي أرجاء المنطقة تلجأ إليه لحل مختلف أنواع القضايا، وسرعان ما أصبح قاضي تحكيم العدالة الوحيد في البلاد.

وفي أوج سلطته، قرَّر فجأةً أنه قد عانى من هذه التجربة ما فيه الكفاية. فلم يعد يريد أن يجلس في كرسي القضاء، ولا أن ينظر في القضايا، ولا أن يسوِّي المنازعات بين الأخ وأخيه، أو بين قرية وقرية. وشكا من أنه أمضى كثيراً من وقته يعالج مشاكل الناس الآخرين إلى درجة أنه أهمل أموره نفسها، فتقاعد. فهبط البلد مرة أخرى إلى حضيض الفوضى. ومع الانسحاب المفاجيء لمحكِّم قوي ذي نفوذ مثل ديوسيز، تزايدت الجريمة، وصار احتقار القانون أعظم من أي وقت مضى. وعقد الميديون من كل القرى اجتماعاً ليقرروا كيفية الخروج من محنتهم. فقال أحد زعماء القبائل: «إننا لا نستطيع الاستمرار في العيش في هذا البلد تحت هذه الظروف. دعونا نعيِّن من بيننا رجلاً يحكمنا كي نتمكَّن من العيش في ظل حكومة نظامية، بدلاً من أن نفقد بيوتنا كلها في غمرة هذه الفوضى».

وهكذا، على الرغم من كل ما عاناه الميديون تحت الطغيان الآشوري، قرَّروا إقامة ملكية وتسمية ملك. وكان الرجل الذي أرادوه أن يحكم أكثر من أي شخص آخر هو طبعاً ديوسيز ذو العقلية المنصفة. وكان إقناعه صعباً، لأنه لم يعد يريد أية علاقة باقتتال القرى وتشاحنها، ولكن الميديين توسَّلوا إليه وناشدوه ـ فبدونه هبط البلد إلى حالة من انعدام القانون. فوافق ديوسيز في آخر الأمر.

ومع ذلك فقد فرض شروطاً، منها بناء قصر هائل له، وتزويده بحراس، وبناء عاصمة يستطيع أن يحكم منها. فنفذت شروطه كلها، واستقر في قصره. وفي وسط العاصمة كان القصر محاطاً بالأسوار، بحيث لا يستطيع الناس العاديون أن يصلوا إليه أبداً. ثم وضع ديوسيز

شروط حكمه. فمنع المثول أمامه. ولم يعد أحد في البلاط الملكي قادراً على رؤيته أكثر من مرة في الأسبوع، وبإذنٍ منه فقط.

وحكم ديوسيز ثلاثة وخمسين عاماً، ووسَّع الإمبراطورية الميديّة، وأقام أسس ما صار فيما بعد يدعى بالإمبراطورية الفارسية في ظل حفيد حفيده كورش. وأثناء عهد ديوسيز تحوَّل احترام الناس له تدريجياً إلى نوع من العبادة: فأخذوا يعتقدون أنه ليس بشراً عادياً قابلاً للموت، بل هو ابن إله.

التفسير

كان ديوسيز رجلاً عظيم الطموح. فقرَّر منذ وقت مبكر أن البلد بحاجة إلى حاكم، وأنه هو رجل هذه المهمة.

وفي بلد مبتلى بطاعون الفوضى، فإن أقوى الرجال سلطة هو القاضي والمحكم. وهكذا بدأ ديوسيز حياته العملية بتعزيز سمعته كرجل لا غبار على إنصافه ولا مطعن فيه.

وفي أوج سلطته كقاضٍ أدرك ديوسيز صحة قانون الغياب والحضور: فبخدمة مثل هذا العدد الكبير من الزبائن، صار ملاحظاً ومتواجداً ومتاحاً أكثر من اللازم. ففقد الاحترام الذي كان يتمتَّع به من قبل. وصار الناس يأخذون خدماته على أنها تحصيل حاصل. فكانت الطريقة الوحيدة لاستعادة التبجيل والسلطة اللذين يريدهما هي أن ينسحب انسحاباً كاملاً ليدع الميديين يتذوَّقون كيف يكون طعم الحياة من دونه. وكما توقع فقد جاؤوه يتوسَّلون إليه أن يحكمهم.

وما أن اكتشف ديوسيز صحة هذا القانون حتى نفَّذه إلى الغاية النهائية من تحقيقه. ففي القصر الذي بناه له شعبه لم يكن يستطيع رؤيته سوى عدد قليل من رجال حاشيته، وحتى هؤلاء لم يكونوا يرونه إلاَّ نادراً. وكما كتب هيرودتس: «كانت هناك مخاطرة في أنهم إذا اعتادوا رؤيته فقد يؤدي ذلك إلى الغيرة والسخط، فتتبعهما المؤامرات. ولكن

إذا لم يره أحد، فإن الأسطورة سوف تنمو بأنه من طينة تختلف عن طينة البشر العاديين».

قال رجل لدرويش: «لماذا لا أراك مرَّات أكثر؟» فردَّ عليه الدرويش: «لأن عبارة (لماذا لم تأتِ لرؤيتي؟) أحلى في أذنيّ من عبارة (لماذا جئت مرّة أخرى؟)».

(الملأ جامي: اقتباس من كتاب إدريس شاه المعنون: قافلة الأحلام، 1968)

مفاتيح السلطة

إن كل شيء في الدنيا يعتمد على الغياب والحضور. فالحضور القوي يجذب إليك السلطة والنفوذ والانتباه ـ فتشرق أسطع ممن حولك. ولكن هناك نقطة حتمية يصبح عندها الحضور أكثر من اللازم منتجاً لأثر عكسي: فكلما زادت رؤيتك والسماع منك تهبط قيمتك أكثر، لأنك تصبح عادة. ومهما حاولتَ أن تبدو مختلفاً فإن احترام الناس لك يقل شيئاً فشيئاً، بطريقة خفية، دون أن تدري لماذا. فيجب عليك أن تتعلَّم كيف تنسحب في اللحظة المناسبة قبل أن يطردك الناس على نحو لا شعوري. إنها لعبة الاختفاء والبحث.

وصحة هذا القانون يمكن تقديرها أسهل من أي شيء في قضايا الحب والإغواء. ففي المراحل الأولى من العلاقة يثير غياب الحبيب خيالك، مما يشكل نوعاً من الهالة حوله أو حولها. ولكن هذه الهالة تتلاشى عندما تعرف أكثر من اللازم، عندما لا يعود هناك مجال لخيالك يسرح فيه. فيصبح المحبوب شخصاً مثل كل الآخرين، يؤخذ حضوره على أنه تحصيل حاصل. ولهذا كانت غانية القرن السابع عشر الفرنسية نينودي لينكلو تنصح باستمرار ممارسة خدعة الانسحاب بعيداً عن الحبيب. وكتبت تقول: «إن الحب لا يموت أبداً من التجويع، بل إنه غالباً ما يموت من التخمة».

ففي اللحظة التي تسمح فيها لنفسك بأن تُعَامَلَ كأي شخص آخر،

يكون الأوان قد فات ـ إذْ يتم ابتلاعك وهضمك. ولمنع ذلك فإنك بحاجة إلى تجويع الشخص الآخر لرؤيتك. فأرغم الآخرين على احترامك بتهديدهم بإمكانية أن يفقدوك إلى الأبد؛ واخلق نمطاً من الحضور والغياب.

عند موتك، سيبدو كل شيء من حولك مختلفاً، فلسوف تحاط بهالة فورية من الاحترام. وسيتذكر الناس انتقادهم لك فيمتلئون بالأسى والشعور بالذنب؛ إذ أنهم يفتقدون حضورك الذي لن يعود قطّ. ولكنك غير مضطر إلى الانتظار حتى تموت: فبالانسحاب الكامل لفترة، يمكنك أن تخلق نوعاً من الموت قبل الموت الفعلي. وعندما تعود، سيكون الأمر كما لو أنك عدتَ من الموت ـ فيتعلّق بك جوّ من البعث، وسيرتاح الناس لعودتك. وهذه هي الطريقة التي جعل ديوسيز فيها نفسه ملكاً.

ولقد كان نابليون مدركاً لقانون الغياب والحضور عندما قال: «إذا شوهدتُ على المسرح كثيراً، فسيتوقف الناس عن ملاحظتي». واليوم، في عالم يغرقه الحضور من خلال طوفان من الصور، فإن لعبة الانسحاب لم تزدد إلاّ قوة وتأثيراً. فلم نعد نعرف متى ننسحب إلاّ نادراً، ولم يعد لأي شيء خصوصية حميمة. ولذا فإننا نشعر بالرهبة والهيبة إزاء أي شخص قادر على الاختفاء اختياراً. ولقد أوجد الكاتبان القصصيان جيروم ديفيد سالنجر وتوماس بينتشون أتباعاً يقلدونهم بشكل طقوسي في معرفة توقيت الاختفاء.

ولهذا القانون جانب آخر معروف أكثر في الحياة اليومية ولكنه يوضح صحته أكثر، وهو قانون الندرة في علم الاقتصاد. فعندما تسحب شيئاً من السوق، تخلق له قيمة فورية. ففي هولندا القرن السابع عشر، أرادت الطبقات العليا أن تجعل الزنبقة شيئاً أكثر من مجرَّد وردة جميلة، وأرادوها أن تكون نوعاً من الرمز للمكانة. فجعلوا هذه الوردة نادرة، بل يكاد الحصول عليها يكون مستحيلاً، وبذلك أشعلوا ما سمِّي فيما بعد

بهوس الزنبق. وصارت الزنبقة الواحدة ذات قيمة تعادل وزنها ذهباً. وبالطريقة نفسها في القرن العشرين، كان بائع اللوحات الفنية جوزيف دوفين يصرّ على جعل اللوحات التي يبيعها نادرة يتيمة إلى أقصى حد ممكن. ولكي يبقي أسعارها مرتفعة ومكانتها عالية، كان يشتري مجموعات كاملةً ويخزنها في قبوه. فصارت اللوحات التي يبيعها أكثر من لوحات مجرَّدة، صارت أشياء سحرية معبودة، وزادت قيمتها بسبب ندرتها. وقال ذات مرّة: «بإمكانك الحصول على كل الصور التي تريدها بخمسين ألف دولار لكل قطعة ـ فهذا سهل. أما الحصول على صور لقاء ربع مليون دولار لكل قطعة، فهذا يحتاج إلى عمل خارق!»

صـــورة:
الشمس: لا يمكن تقديرها
إلاَّ عن طريق غيابها. فكلما طالت
أيام المطر زاد التشوق إلى الشمس. ولكن
أيام الحر إذا زادت عن حدها تجعل حضور
الشمس طاغياً. تعلَّم أن تجعل نفسك تغيب
واجعل الناس هم الذين يطالبون بعودتك.

امدد قانون الندرة ليشمل مهاراتك. واجعل ما تقدمه إلى العالم نادراً ويصعب العثور عليه. وعندئذ تزيد قيمته على الفور.

وتأتي دائماً لحظة يبقى فيها ذوو السلطة في مراكزهم مدة أطول مما هو مُرَحَّبٌ به، فنشعر بالملل منهم، ونفقد احترامنا لهم، ونراهم كأناس لا يختلفون عن باقي البشر، أي أننا في الواقع نراهم أسوأ من غيرهم لأننا حتماً نقارن مكانتهم الحالية في نظرنا بمكانتهم السابقة. فهناك فن معرفة وقت التقاعد. فإذا تم بطريقة صحيحة، فإنك تستعيد الاحترام الذي فقدته، وتحتفظ بجزء من سلطتك.

كان أعظم حكام القرن السادس عشر هو تشارلس الخامس ملك إسبانيا، وإمبراطور آل هابسبرغ الذي حَكَمَ إمبراطورية شملت في وقتٍ مّا كثيراً من أوروبا والدنيا الجديدة. ومع ذلك ففي أوج سلطته في سنة 1557، تقاعد وانسحب إلى دير في يوسطه. وأُسِرَت أوروبا كلها بانسحابه المفاجيء، وأخذ الناس الذين كانوا يكرهونه ويخافونه يسمونه فجأةً عظيماً. بل لقد راحوا يرونه قديساً. وفي العصر الحديث لم تحصل نجمة السينما غريتا غاربو على إعجابٍ أكثر مما جاءها عندما تقاعدت في سنة 1941. ورأى البعض أن غيابها جاء مبكراً أكثر من اللازم ـ فقد كانت في منتصف الثلاثينات من عمرها ـ ولكنها كانت من التعقل بحيث فضَّلت المغادرة حسب شروطها هي، بدلاً من الانتظار حتى يسأم جمهورها منها.

اجعل نفسك متاحاً موجوداً وسوف تتلاشى هالة السلطة التي خَلَقْتَهَا حول نفسك. ولكن اقلب اللعبة رأساً على عقب: واجعل نفسك أقل توافراً وتواصلاً مع الناس، وسوف تزيد قيمة حضورك.

الشاهد:

استخدم الغياب لخلق الاحترام والتوقير. فإن الغياب يضخم الشهرة إذا كان الحضور يقلل منها. والرجل الذي يعتبر عند غيابه أسداً يصبح عند حضوره مبتذلاً وسخيفاً. والمواهب تفقد بريقها إذا صارت معروفة لنا أكثر من اللازم، لأن القشرة الخارجية للذهن ترى بسهولة أكثر مما يُرَى لبّه الغنيّ الداخلي. وحتى العبقري البارز يستفيد من التقاعد كي يحترمه الناس، وكي تجعله الأشواق التي يثيرها غيابه موقراً.

(بلثازار غراسيان، 1601-1658)

الانقلاب

لا ينطبق هذا القانون إلاَّ عند الوصول إلى مستوى معيَّن من السلطة. ولا تأتي الحاجة إلى الانسحاب إلاَّ بعد أن تكون قد رسختَ حضورك؛ غادر قبل الأوان، ولن تزيد في احترامك، بل ستتعرَّض ـ ببساطة ـ للنسيان. فعند دخولك إلى مسرح العالم للمرة الأولى، اخلق صورة متميزة يمكن التعرّف عليها واستذكارها، ومشاهدتها في كل مكان. وإلى أن تتحقق هذه المكانة، يظل الغياب خطراً ـ إذْ أنه يطفىء اللهب بدلاً من أن يجعله يتوهج.

وبالمثل فإن الغياب في مجال الحب والإغواء لا يكون فعالاً إلاَّ بعد أن تكون قد طوَّقتَ الشخص الآخر بصورة، بحيث يراك (أو تراك) في كل مكان. فكل شيء يجب أن يُذكِّر حبيبك بحضورك، بحيث أنك حينما تختار أن تبتعد بالفعل فإن حبيبك سيظل يفكِّر بك على الدوام، ويراك بعين عقله (أو تراك بعين عقلها) على الدوام كذلك.

تذكَّر: في البداية لا تجعل نفسك نادراً، بل متواجداً في كل مكان. ذلك أن ما يُرَى يُقَدَّر ويُحَبُّ هو وحده الذي سَيُفْتَقَدُ عند غيابه.

القانون

17

ابقِ الآخرين في رعب مقيم: كرّس جواً من استحالة التنبؤ بحركاتك

الحكم

البشر أبناء العادة، وفيهم تعطش لا يرتوي لرؤية ما هو معروف ومألوف في أعمال الناس الآخرين. وإن إمكانية التنبؤ بحركاتك تعطيهم إحساساً بالسيطرة. فاقلب الموائد، وتعمَّد أن تكون شخصاً يستحيل التنبؤ بحركاته، إذ إن السلوك الذي يبدو بلا تجانس ولا هدف سيبقيهم بلا توازن، فيرهقون أنفسهم في محاولة توضيح تحركاتك. وإذا أُخِذَت هذه الاستراتيجية إلى حدها الأقصى، فإنها تستطيع أن تخيف وتُرْهِب.

obeikandl.com

مراعاة القانون

في أيار/ مايو سنة 1975، كان بطل الشطرنج بوريس سباسكي ينتظر بقلقٍ منافِسَهُ بوبي فيشر في العاصمة الآيسلندية ريكجافيك. وكان من المقرر أن يلتقي الرجلان من أجل بطولة العالم في الشطرنج، ولكن فيشر لم يصل في الوقت المحدَّد، فكانت المباراة معلَّقة. وكانت لدى فيشر مشاكل تتعلَّق بحجم نقود الجائزة، ومشاكل تتعلَّق بطريقة توزيع تلك النقود، ومشاكل تتعلَّق بالسَّوْقيات التعبوية لإقامة المباراة في آيسلندا. وكان من الممكن أن ينسحب في أي لحظة.

وحاول سباسكي أن يتذرَّع بالصبر. وقد شعر رؤساؤه الروس أن فيشر كان يهينه، وطلبوا منه أن ينسحب، ولكن سباسكي كان يريد مباراته. كان يعرف أنه قادر على تحطيم فيشر، ولم يكن يريد لأي شيء أن يفسد عليه أعظم انتصار في حياته الاحترافية. وعند تأخر فيشر عن الموعد قال سباسكي لرفيق له: «وهكذا يبدو أن كل عملنا قد لا ينتج عنه شيء». فأجابه: «ولكن ماذا نستطيع أن نفعل؟ إنه دور بوبي ليقوم بحركته. فإذا جاء فإننا سنلعب، وإذا لم يأتِ فإننا لن نلعب. فالرجل المستعد للانتحار هو الذي بيده زمام المبادرة».

وأخيراً وصل فيشر إلى ريكجافيك، ولكن المشاكل استمرت، وكذلك التهديد بالإلغاء. فقد كره القاعة التي كانت المباراة ستقام فيها، وانتقد الإضاءة، وتذمَّر من ضجة آلات التصوير، بل لقد كره حتى

الكرسيين اللذين كان سيجلس عليهما هو وسباسكي. فأخذ الاتحاد السوفييتي زمام المبادرة وهدَّد بسحب الرجل الذي يمثله.

وبدا أن هذه الخدعة فعلت فعلها؛ فبعد كل أسابيع الانتظار، والمفاوضات التي لا تنتهي، والتي تثير الأعصاب، وافق فيشر على اللعب. فشعر الجميع بالارتياح. ولم يكن أحد مرتاحاً أكثر من سباسكي. ولكن في اليوم الذي كان سيجري فيه التقديم الرسمي، وصل فيشر متأخراً جداً. وفي اليوم الذي تقرَّر أن تبدأ فيه «مباراة القرن» تأخر فيشر كذلك. غير أن العواقب في هذه المرة ستكون وخيمة. فإذا وصل متأخراً **أكثر من اللازم** فسيخسر المباراة الأولى. فما الذي كان يجري؟ هل كان يلعب نوعاً من لعبة ذهنية؟ أم هل كان بوبي فيشر خائفاً من بوريس سباسكي؟ وبدا للأساتذة الكبار المتجمعين، ولسباسكي أن هذا الفتى الشاب من بروكلين قد أصابته حالة رهيبة من الاهتياج العصبي البالغ. وفي الساعة الخامسة وتسع دقائق ظهر فيشر، قبل دقيقة واحدة بالضبط من إلغاء المباراة.

وللمباراة الأولى في مهرجان شطرنجي أهمية حسَّاسة، إذْ أنها تحدِّد الإيقاع على امتداد الشهور التالية. وهي على الأغلب صراع بطيء وهادىء، يهيء فيه اللاعبان نفسيهما للحرب ويحاول كل منهما قراءة خطط الآخر. بَيْدَ أن هذه اللعبة كانت مختلفة. فقد قام فيشر بحركة رهيبة في وقت مبكر، لعلها كانت الأسوأ في تاريخ حياته العملية. وعندما وضعه سباسكي في موقف دفاعي ميؤوس منه، بدا أنه سيستسلم. ومع ذلك كان سباسكي يعلم أن فيشر لا يستسلم قطّ، وحتى وهو يواجه عبارة «كش مات» كان يقاتل حتى النهاية المريرة، وبذلك يرهق خصمه. أما في هذه المرة فقد بدا مستسلماً. غير أنه انطلق فجأة في حركة جريئة جعلت الغرفة تئزّ بأصوات التعجب. وصدمت الحركة سباسكي، ولكنه صحا من الصدمة واستطاع أن يكسب اللعبة. ولكن لم يستطع أحد أن يحدِّد ما الذي كان ينويه فيشر. فهل خسر تلك الجولة

الأولى عمداً؟ أم هل تسرَّع وارتبك؟ هل فقد توازنه؟ بل هل جُنّ، كما ظنّ البعض؟

وبعد هزيمته في اللعبة الأولى، عاد فيشر إلى التذمّر بصوت أعلى حول الغرفة، وآلات التصوير، وكل شيء آخر. كما أنه فشل في الظهور في الوقت المناسب للعبة الثانية. وفي هذه المرة سئم منه منظمو المباراة فحكموا عليه بخسارتها. وبذلك خسر لعبتين في مقابل لا شيء. وهذا مركز لم يسبق أن عاد منه أحد قطّ ليفوز ببطولة شطرنج. ومع ذلك ففي الجولة الثالثة، كما يتذكَّرها جميع الذين شهدوها، كانت في عين فيشر نظرة شرسة، وكان واضحاً أنها نظرة أقلقت سباسكي. ورغم الحفرة التي حفرها فيشر لنفسه، فقد بدا واثقاً من نفسه للغاية. وارتكب فعلاً ما بدا كأنه غلطة أخرى، كما فعل في الجولة الأولى ـ ولكن جوّ الثقة بالنفس الذي أظهره جعل سباسكي يشم رائحة فخ. ومع ذلك، ورغم شكوك الروسي فإنه لم يستطع تحديد الفخ، وقبل أن يدرك ما الذي جرى فاجأه فيشر بحركة «كش مات». والواقع أن تحركات فيشر غير المألوفة قد زعزعت أعصاب خصمه تماماً. وفي نهاية تلك اللعبة، قفز فيشر واندفع خارجاً وهو يصرخ لحلفائه ويدق راحة يده بقبضة يده الأخرى: «إنني أسحقه بقوة وحشية!».

وفي الجولات التالية قام فيشر بحركات لم يرها منه أحد قبل ذلك، حركات لم تكن معروفة عنه في أسلوبه. وبعد ذلك راح سباسكي يرتكب أخطاء. وبعد خسارة الجولة السادسة، بدأ يبكي. فقال أحد الأساتذة الكبار: «بعد هذا، يتعيَّن على سباسكي أن يسأل نفسه عما إذا كان من السليم أن يعود إلى روسيا». وبعد الجولة الثامنة قرَّر سباسكي أنه قد عرف ما الذي كان يجري. كان بوبي فيشر ينوِّمه مغناطيسياً؛ فقرَّر أن لا ينظر إلى عيني فيشر. ومع ذلك فقد خسر.

وبعد الجولة الرابعة عشرة دعا إلى مؤتمر للموظفين وأعلن: «إن هناك محاولة تجري للسيطرة على ذهني»، وتساءل عما إذا كان عصير

البرتقال الذي شربه اللاعبان على طاولة الشطرنج قد احتوى على دواءٍ مّا. وربما كانت هناك مواد كيميائية تضخ في الهواء. وأخيراً خرج سباسكي إلى العلن، فاتهم فريق فيشر بوضع شيء في الكراسي يؤثر على سباسكي ويغيِّر رأيه. ووضعت لجنة الأمن العام (الـ كي.جي.بي. في حالة تأهب: لقد كان بوريس سباسكي يحرج الاتحاد السوفييتي!

وتم تفكيك الكرسيين وتصويرهما بالأشعة السينية (×). ولم يعثر الكيميائي المختص على أي شيء غير عادي فيهما. والحقيقة أن الشيء الوحيد الذي عثر عليه أي شخص في أي مكان لم يكن سوى ذبابتين ميِّتتين في مكان تركيب الأضواء. وبدأ سباسكي يشكو من هلوسات، وحاول أن يستمر في اللعب، ولكن ذهنه أخذ يتحلَّل وينفصل عما حوله، فلم يعد قادراً على الاستمرار. وفي 2 أيلول/ سبتمبر، استسلم. ورغم أنه كان ما يزال شاباً نوعاً مّا، فإنه لم يتعافَ من هذه الهزيمة.

التفسير

في المباريات السابقة بين فيشر وسباسكي، لم يكن أداء فيشر جيِّداً، فقد كانت لسباسكي قدرة خارقة على قراءة خطط خصمه الاستراتيجية واستخدامها ضده. وكان سباسكي قابلاً للتكيّف وصبوراً، يبني هجمات تدحر خصمه، ليس في سبع حركات، بل في سبعين. وكان يهزم فيشر في كل مرة يلعبان فيها، لأنه كان يرى بعيداً إلى الأمام مسبقاً. فكان خبيراً نفسياً لامعاً لم يفقد سيطرته قطّ. وقد قال عنه أحد أساتذة الشطرنج: «إنه لا يكتفي بالبحث عن أفضل حركة، بل يبحث أيضاً عن الحركة التي ستزعج خصمه وتقلقه».

غير أن فيشر أدرك في آخر الأمر أن هذا كان واحداً من أسرار نجاح سباسكي. فقد كان يستفيد من سهولة التنبؤ بحركاتك، فيدحرك في لعبتك نفسها. وكان كل شيء فعله فيشر في مباريات البطولة محاولة لكسب زمام المبادرة إلى جانبه وإبقاء سباسكي فاقداً للتوازن. وكان من الواضح أن الانتظار الذي لا ينتهي قد ترك أثراً على نفسية سباسكي. غير

أن أقوى التأثيرات جاءت من أغلاط فيشر المتعمدة، وظهوره بمظهر من لا يملك خطة استراتيجية واضحة. والواقع أنه كان يفعل كل ما في استطاعته لخلط أنماطه القديمة بصورة مشوَّشة، حتى ولو أدَّى ذلك إلى خسارة المباراة الأولى، وفقدان حقه في الثانية من خلال تغيبه عنها.

وكان سباسكي معروفاً بهدوئه ورباطة جأشه وتعقله. ولكنه للمرة الأولى في حياته لم يستطع أن يفهم خصمه، فراح يذوب بالتدريج حتى صار في آخر الأمر هو الذي يبدو مجنوناً.

يحتوي الشطرنج على خلاصة جوهر الحياة على نحو مركَّز وكثيف: أولاً لأنك لكي تفوز يجب أن تكون صبوراً وبعيد النظر للغاية، وثانياً لأن اللعبة مبنية على أنماط وعلى عواقب كاملة لحركات تمَّت من قبل وسوف تجري مرة أخرى، بتحويرات طفيفة، في أية مباراة لوحدها. فيحلّل خصمك الأنماط التي تلعبها ويستخدمها في محاولة التنبؤ بحركاتك. وإن عدم السماح له بشيء قابل للتنبؤ به ليبني خطته على ذلك التنبؤ سوف يعطيك ميزة كبرى. وفي الشطرنج، كما في الحياة، عندما يعجز الناس عن فهم ما تفعل، فإنهم يبقون في حالة رعب، ينتظرون، غير متأكدين، ومحتارين مشوَّشين.

> إن الحياة في البلاط لعبة شطرنج جادة كثيبة تتطلَّب منا أن نعبِّىء قطعنا ونحشد بطارياتنا، ونرسم خطة، ونتابعها، ونتفادى خطة خصمنا، غير أن من الأفضل أحياناً أن نقوم بالمخاطرات، وأن نلعب بأكثر الحركات تقلباً وأصعبها إمكانية للتنبؤ بها.
>
> *(جان دي لا بروييه، 1645-1696)*

مفاتيح السلطة

لا شيء يثير الرعب أكثر مما هو مفاجىء ويصعب التنبؤ به. ولهذا تخيفنا الزلازل والأعاصير كثيراً، لأننا لا نعرف متى تقع. وعندما تحدث واحدة منها، فإننا ننتظر حدوث التالية ونحن مذعورون. وهذا ـ إلى حدٍّ

أقل ـ هو تأثير السلوك الإنساني علينا عندما يكون غير متوقع ويصعب التنبؤ به.

إن الحيوانات تتصرَّف وفق أنماط ثابتة. ولذا فنحن قادرون على صيدها وقتلها. والإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تغيير سلوكه عن وعي وقصد، وعلى الارتجال والتغلب على وزن النمط الرتيب والعادة. ومع ذلك فإن معظم الناس لا يدركون هذه القدرة أو القوة. فهم يفضِّلون الراحة في الروتين المألوف، وفي الاستسلام للطبيعة الحيوانية التي تجعلهم يكرِّرون الأفعال الإجبارية نفسها مرة بعد أخرى. وهم يفعلون ذلك لأنه لا يتطلَّب جهداً، ولأنهم يعتقدون خطأ أنهم إذا لم يقلقوا الآخرين فسوف يتركهم الآخرون وشأنهم.

إفهم: إن الشخص ذا السلطة يسرّب إلى النفوس نوعاً من الخوف بتعمّده إقلاق مَنْ حوله لإبقاء زمام المبادرة إلى جانبه. فأنت تحتاج أحياناً إلى الضرب بلا إنذار، لجعل الآخرين يرتجفون عندما تأتيهم الضربة من حيث لا يحتسبون. وهذا إجراء ظل ذوو السلطة يتخذونه طوال قرون.

كان فيليبو ماريا، آخر دوق لميلانو من آل فيسكونتي في إيطاليا القرن الخامس عشر، يتعمد عن وعي وقصد أن يفعل عكس ما يتوقعه منه الجميع. وعلى سبيل المثال كان ربما أغدق اهتماماً كبيراً ومفاجئاً على أحد رجال حاشيته، ثم عندما يتوقع ذلك الرجل ترفيعاً إلى منصب أعلى، يبدأ الدوق يعامله بمنتهى الاحتقار. فيحتار الرجل وربما يغادر البلاط، وعندئذ يستدعيه الدوق ويبدأ في معاملته بالحسنى مرة ثانية. فتتضاعف حيرة الرجل ويتساءل عما إذا كان توقعه للترفيع قد صار واضحاً إلى حد مؤذٍ للدوق، ويبدأ في التصرف كما لو أنه لم يعد يتوقع مثل ذلك التكريم. وعندئذ يلومه الدوق على نقص طموحه ويبعده عنه.

وكان سر التعامل مع فيليبو ماريا بسيطاً: لا تفترض أنك تعرف ماذا يريد. لا تحاول أن تحدس لتحزر ما الذي يسره؛ وإياك أن تبرز

إرادتك؛ وعليك فقط أن تستسلم لإرادته هو. ثم انتظر لترى ما سيحدث. ففي وسط الحيرة وانعدام اليقين اللذين يخلقهما الدوق، كان يحكم متميزاً غير منازَع، ومتمتعاً بالسلام.

إن استحالة التنبؤ بالحركة هي في الغالب الأعم خطة السيد أو الأستاذ. ولكن المحكوم أو الضحية يستطيع أيضاً أن يستخدمها بنجاح كبير ومؤثر. فإن وجدت نفسك محاصراً أو تواجه خصوماً يفوقونك عدداً، قم بسلسلة من الحركات غير المتوقعة، فبذلك تحير أعداءك إلى درجة أنهم يتراجعون أو يرتكبون خطأً في الحركة التكتيكية.

في ربيع سنة 1862، أثناء الحرب الأهلية الأميركية، كان الجنرال ستونوول جاكسون، ومعه قوة من 4600 من الجنود الانفصاليين يعذّبون قواتٍ اتحاديَّةً أكثر منهم في وادي شيناندواه. وفي تلك الأثناء، وفي مكان غير بعيد، كان الجنرال جورج برينتون ماكليلان على رأس قوة من تسعين ألفاً من الجنود الاتحاديين يزحف جنوباً من مدينة واشنطن في مقاطعة كولومبيا كي يحاصر ريتشموند (بولاية فيرجينيا) عاصمة الانفصاليين. وبينما كانت أسابيع الحملة تمر تَتْرَى، ظل جاكسون يقود جنوده مراراً خارج وادي شيناندواه، ثم يعيدهم إليه.

ولم يكن لحركاته هذه معنى، فهل كان يستعد للمساعدة في الدفاع عن ريتشموند؟ هل كان يزحف على واشنطن بعد أن تركها غياب ماكليلان بلا دعم؟ أكان متجهاً إلى الشمال لإحداث ذعر ودمار هناك؟ ولماذا تتحرك قواته في دوائر؟

وأدت تحركات جاكسون التي لا تفسير لها إلى جعل قادة الاتحاد يؤجلون الزحف على ريتشموند ريثما يتفهمون نواياه. وفي هذه الأثناء تمكن الجيش الجنوبي من ضخ التعزيزات في المدينة. فتحولت المعركة التي كان يمكن أن تسحق الانفصال إلى مأزق جمود. وقد استخدم جاكسون هذه الخطة التكتيكية مرة بعد أخرى عندما كان يواجه قوات متفوقة. وكان يقول: «شوِّش العدو وحيِّره وضلله وفاجئه دائماً إن كان

ذلك ممكناً. . . فمثل هذه الخطط تنجح في كل وقت، ورُبَّ جيش صغير يدمّر بذلك جيشاً كبيراً».

ولا يقتصر تطبيق هذا القانون على الحرب، بل يشمل أوضاع الحياة اليومية كذلك. فالناس يحاولون دائماً أن يقرأوا الدوافع الكامنة وراء أعمالك، وأن يستخدموا قدرتهم على التنبؤ بها ضدك. قُمْ بحركة لا تفسير لها أبداً وعندئذ تضعهم في موقف الدفاع، لأن عدم فهمهم لك يثير أعصابهم فيفقدهم رباطة جأشهم. وفي مثل هذه الحالة تستطيع أن تخيفهم بسهولة.

وقد لاحظ بابلو بيكاسو ذات مرة: «إن أفضل الحسابات هو غياب الحسابات. فعند حصولك على مستوى معين من الاعتراف فإن الآخرين يتصورون أنك عندما تفعل شيئاً، فإنما تفعله لسبب ذكي. ولذلك فإن من الحمق أن تخطط لحركاتك بدقة وعناية سلفاً أكثر من اللازم. بل إن من الأفضل لك أن تتصرف بشكل متقلب».

وقد عمل بيكاسو فترة مع بائع التحف الفنية بول روزنبرغ. وفي البداية أعطاه قدراً لا بأس به من الحرية في التعامل مع لوحاته، وذات يوم، وبلا سبب ظاهر، قال له إنه لن يعطيه أي عمل له ليبيعه. وكما أوضح بيكاسو، فإن روزنبرغ «سيقضي الساعات الثماني والأربعين التالية محاولاً أن يفهم السبب: هل سأحتفظ بالأشياء لبائع آخر؟ وبينما أستمر أنا في العمل والنوم، يمضي روزنبرغ وقته يضرب أخماساً في أسداس. ويعود إليّ بعد يومين وأعصابه متشابكة، وهو قلق، ليقول لي: «وبعد كل شيء يا صديقي، فإنك لن تتخلى عني إذا عرضت عليك كذا [ويسمي رقماً أعلى بكثير من السابق] لتلك اللوحات، بدلاً من الثمن الذي اعتدت على دفعه لك. أليس كذلك؟».

إن صعوبة التنبؤ ليست سلاحاً للإرهاب فقط. إذ أن خلط أنماطك وتغييرها على أساس يومي بين حين وآخر سوف يثير حركة من حولك وينشط اهتمام الناس فيبدأون بالحديث عنك، ويعزون إليك دوافع

وتوضيحات لا علاقة لها بالحقيقة، غير أنها تبقيك ماثلاً في أذهانهم باطراد. وفي آخر الأمر فإنه كلما ازداد ظهورك بمظهر المتقلب، زاد الاحترام الذي تكنزه. فلا يتصرفُ بطريقة متوقعة سهلة التنبؤ سوى الذين يريدون أن يظلوا خاضعين في مركز ثانوي إلى النهاية.

صورة: الإعصار: ريحٌ لا يمكن التنبؤ
بها. تقلبات مفاجئة في مقياس الضغط
الجوي. تغيرات لا تفسير لها في
الاتجاه والسرعة. ولا يوجد
دفاع: فالإعصار يزرع
الرعب والحيرة.

الشاهد: الحاكم المتنور غامض إلى درجة أنه يبدو غير مستقر في أي مكان، وصعب التفسير إلى درجة أنه لا يبحث عنه أحد، فهو مستريح في السكون وعدم العمل في الأعالي، بينما وزراؤه يرتجفون في الأسفل. (هان ـ في ـ تزو، فيلسوف صيني من القرن الثالث قبل الميلاد).

الانقلاب

قد تعمل سهولة التنبؤ بحركاتك لمصلحتك في بعض الأحايين: فمن خلال خلق أنماط يعرفها الناس ويرتاحون لها، تستطيع أن تهدهدهم حتى يناموا. فقد هيأوا كل شيء حسب أفكارهم الجاهزة المسبقة عنك. وهذا شيء يمكنك استخدامه بطرق عديدة. فهو أولاً: يقيم لك ستارة من دخان تكون واجهة مريحة تنفذ من ورائها أعمالاً خادعة. وثانياً: يتيح لك فرصاً نادرة لعمل شيء معاكس للنمط تماماً، فتزعزع استقرار خصمك بعمق إلى درجة أنه يسقط على الأرض بدون أن تدفعه.

obeikandl.com

في سنة 1974، كان من المقرر أن يخوض محمد علي، وجورج فورمان، مباراة ملاكمة لبطولة العالم في الوزن الثقيل. وكان الجميع يعرفون ما الذي سيحدث. سيحاول جورج فورمان الكبير أن يسدد ضربة قاضية بينما يتراقص محمد علي من حوله، حتى يرهقه. فتلك كانت طريقة عليّ في القتال ونمطه. ولم يغيرها خلال أكثر من عشرة أعوام. ولكنها في هذه الحالة ظهرت وكأنها تعطي ميزة لفورمان: وكانت له ضربة مدمرة، فإذا انتظر فإن علياً سيأتي إليه إن عاجلاً أم آجلاً. غير أن علياً، أستاذ التخطيط الاستراتيجي، كانت لديه خطط أخرى: ففي المؤتمرات الصحفية التي سبقت المباراة الكبرى، قال إنه سيغير أسلوبه ويتبادل الضربات القاسية مع فورمان حتى النهاية. ولم يصدق أحد ذلك لمدة ثانية واحدة. وكان فورمان أقل الناس تصديقاً. فتلك الخطة من جانب عليّ ستكون انتحاراً؛ فعليّ كان يلعب دور الكوميدي المضحك كالمعتاد ثم، قبل المباراة، قام مدرب علي بإرخاء الحبال حول الحلبة. وهذا شيء يفعله المدرب إذا كان ملاكمه ينوي المصابرة والمطاولة في معركة مواجهة. ولكن لم يصدق أحد هذه الخدعة؛ فلا بد أنها كانت مصيدة.

ولذهول الجميع، عمل عليٌّ بالضبط ما قال إنه سيعمله. فبينما كان فورمان ينتظر منه أن يتراقص حوله، توجه إليه عليّ وراح يتبادل معه اللكمات في سجال. وبذلك قلب استراتيجية خصمه رأساً على عقب. واحتار فورمان، فانتهى به الأمر إلى إرهاق نفسه، لا في مطاردة عليّ بل في توجيه اللكمات بصورة وحشية، وفي تلقي اللكمات المضادة أكثر فأكثر. وأخيراً سدد له عليّ لكمة تقاطع دراماتيكية مفاجئة بيمناه طرحته أرضاً. إن عادة الافتراض بأن سلوك شخصٍ مّا سينطبق على أنماطه السابقة تبلغ من رسوخها أنه لم يكفِ لقلبها حتى تصريح عليّ الذي أعلن فيه أنه سيغير استراتيجيته. وهكذا سار فورمان برجليه إلى الفخ، الفخ الذي قيل له أن يتوقعه.

تحذير: إن صعوبة التنبؤ قد تعمل ضدك أحياناً، وخصوصاً إذا كنت في موقع ثانوي. فهناك أوقات يكون من الأفضل ترك الناس يشعرون بالراحة والاستقرار حولك بدلاً من إزعاجهم أو إقلاقهم. فإن صعوبة التنبؤ إذا زادت عن حدها قد يراها الناس علامة على عدم الحسم، أو حتى مؤشراً على مشكلة نفسية أخطر. فالأنماط قوية. وقد ترعب الناس بتمزيقها. ومثل هذه القوة ينبغي ألا تستخدم إلاَّ بحكمة وتعقّل.

obeikandl.com

القانون

18

لا تَبْنِ قلاعاً لحماية نفسك ـ فالعزلة خطرة

الحكم

العالم مكان خطر والأعداء في كل مكان. وعلى الجميع أن يحموا أنفسهم. وتبدو القلعة هي الأسلم. ولكن العزلة تعرّضك لأخطار أكثر من تلك التي تحميك منها ـ فهي تعزلك عن معلومات ثمينة؛ كما أنها تجعلك بارزاً للعيان وهدفاً سهلاً. وأفضل من ذلك أن تتجول بين الناس، وتجد حلفاء، وتختلط. فأنت محمي من أعدائك بجمهور الناس.

obeikandl.com

انتهاك القانون

مسرحية الموت الأحمر

كان «الموت الأحمر» قد خرَّب البلاد زمناً طويلاً. فلم يكن هناك وباء قاتل ولا بشع بهذا القدر من قبلُ أبداً. وكان الدم تجسيده وخاتمه احمرار الدم، والرعب الناجم عنه. فكانت هناك آلام حادَّة، ثم دوار مفاجئ، فنزيف راعف وفير من المسامات، مع شعور بالانحلال... وكانت النوبة كلها، وتطورها ونهاية المرض بالكامل تقع في غضون نصف ساعة.

ولكن الأمير بروسبيرو كان سعيدًا وباسلاً وفطناً. وعندما هلك نصف سكان ممتلكاته، استدعى ألفاً من الفرسان والسيدات الأصحّاء الأخلياء في بلاطه، وتراجع بهم إلى عزلة عميقة في أحد أديرته المحصَّنة. وكان هذا الدير بناءً واسعاً ورائعاً من نتاج ذوق الأمير الغريب والمهيب في الوقت نفسه. ويحيط به ويحتضنه جدار قوي شاهق. وكان في هذا الجدار بوّابات من الحديد. وبعد أن دخل رجال الحاشية جيء بأفران ومطارق ضخمة وتمّ تلحيم كل رتاج وسدادة قفل.

كان شْئِين شِيه هْوَانْغْ تي، أول إمبراطور للصين (221 ـ 210 ق .م.) أقوى رجل في زمانه. فإمبراطوريته كانت أوسع وأقوى من إمبراطورية الاسكندر الأكبر. وقد قهر جميع الممالك المحيطة بمملكته (شْئين) ووحَّدها في مملكة كبيرة تدعى الصين. ولكن في السنوات الأخيرة من حياته، لم يكن يراه إلاَّ قليلون، إن كان بإمكان أي أحد أن يراه أصلاً. وكان ينام في غرفة مختلفة عن سابقتها كل ليلة. وكان أي واحد تقع عينه عليه ولو بدون قصد، تقطع رأسه على الفور. ولم يكن يعرف أماكن تواجده إلاَّ حفنة من الرجال، فإذا كشفوا ذلك لأي أحد، فإنهم يُقْتَلون أيضاً.

لقد صار الإمبراطور يخاف الاتصال الإنساني إلى درجة أنه عندما كان يضطر لمغادرة القصر كان يسافر متنكراً بعناية كي لا يعرف أحد هويته. وفي رحلة كهذه عبر الأقاليم، مات فجأة. فحمل جثمانه وأعيد إلى العاصمة في عربة الإمبراطور مع عربة محملة بالسمك المملح تسير خلفها لإخفاء رائحة الجثة المتعفنة. فلم يقدر لأحد أن يعرف بموته. لقد مات وحيداً، بعيداً عن زوجاته، وأسرته، وأصدقائه، ورجال حاشيته، ولم يصحبه سوى وزير وحفنة من الخِصْيان.

التفسير

بدأ شيه هوانغ تي كملك لشْئِين، وكان مقاتلاً لا يخاف، وله

طموح جامح لا يحدّه شيء، وقد وصفه كُتّاب ذلك العصر بأنه رجل ذو «أنف نحيل، وعينين تشبهان شعّتين، وصوت كصوت ابن آوى، وقلب نمر أو ذئب». وكان باستطاعته أن يظهر الرحمة أحياناً، ولكنه في أغلب الأحيان كان «يبتلع الرجال بلا تردد». فقد قهر المقاطعات المحيطة بمقاطعته عن طريق الخداع والعنف، وأوجد الصين، فصنع أمة واحدة وثقافة واحدة من أمم وثقافات شتى؛ وحطم النظام الإقطاعي. ولإبقاء الرقابة على الكثيرين من أفراد الأسر المالكة المبعثرين في أرجاء الممالك التابعة لمملكته، نقل مائة وعشرين ألفاً منهم إلى العاصمة، حيث أسكن أهم رجال الحاشية في قصر هْسِين ـ يانغ الشاسع. وعزز الأسوار الكثيرة على الحدود، وبنى منها سور الصين العظيم. ووحد قوانين البلاد، ولغتها المكتوبة، وحتى حجم عجلات عرباتها.

غير أن الإمبراطور الأول، كجزء من عملية التوحيد هذه، أعلن تحريم كتابات كونفوشيوس وتعاليمه، وهو الفيلسوف الذي كانت أفكاره وحياته الأخلاقية قد أصبحت من الناحية الفعلية شيئاً كالدين في الثقافة الصينية. وبناء على أمر شيه هوانغ تي، أحرقت آلاف الكتب التي لها علاقة بكونفوشيوس. وتقرر قطع رأس كل من يستشهد بكلام كونفوشيوس. وأوجد هذا عداوات كثيرة للإمبراطور، فصار خائفاً باستمرار، بل أصيب بجنون الارتياب. وتزايدت حالات الإعدام. ولاحظ الكاتب المعاصر هان ـ في ـ تزو أن «ملك شْيِين كان منتصراً على مدى أربعة أجيال، ومع ذلك يعيش في رعب مقيم وخوف من الدمار».

وبينما انسحب الإمبراطور أعمق فأعمق إلى داخل القصر لحماية نفسه بدأ يفقد سيطرته على المملكة ببطء. وراح الخصيان والوزراء يصوغون البرامج السياسية بدون موافقته، وحتى بدون علمه؛ وأخذوا يتآمرون عليه أيضاً. وانتهى به الأمر إلى أن أصبح إمبراطوراً بالاسم فقط، وبلغ من عزلته أنه لم يكد أحد يعرف أنه مات. ولعله قد سمّم

فقد قرروا ألاّ يتركوا سبيلاً للدخول أو الخروج أو الحوافز المفاجئة لليأس أو نوبات السُّعار المندفع من الداخل. وكان الدير مزوّداً بمؤن وفيرة. وبمثل هذه الاحتياطات كان رجال الحاشية يستطيعون تحدّي العدوى. فالعالم الخارجي يستطيع أن يهتم بنفسه. وفي تلك الأثناء كان من الحمق أن يحزن المرء أو يتفكّر. فقد زوّدهم الأمير بكل الوسائل العملية للمسرّة. فكان هناك مهرّجون، وشعراء ارتجاليون، وراقصات باليه، وموسيقيون، وجميلات، وشراب. وكان هؤلاء جميعاً ومعهم الأمن في الداخل. أما في الخارج فكان هناك «الموت الأحمر».

وفي نهاية الشهر الخامس أو السادس من هذه العزلة، وبينما كان الطاعون يعصف بالناس كأعنف ما يكون في الخارج، أقام الأمير بروسبيور لأصدقائه الألف حفلة تنكرية بالأقنعة كانت من أروع الأشياء غير المألوفة. فكانت تلك الحفلة التنكرية مشهداً شهوانياً... استمرّ فيها الصخب المعربد بشكل مدوّخ حتى دقّت الساعة منتصف الليل في آخر الأمر...

وهكذا أيضاً، حدث، ربما قبل أن تتلاشى أصداء آخر دقّة لتغطس في عالم الصمت، أنّ كان هناك أشخاص كثيرون في الحشد، قد لاحظوا من الفراغ من جعلهم يتنبّهون لوجود شخص مقنّع لم يكن قد لفت انتباه أيّ فردٍ من قبل... كان ذلك الشخص

على أيدي وزرائه المتآمرين أنفسهم، الذين كانوا يشجعون انعزاله عن الناس.

فهذا ما تأتي به العزلة. تراجع إلى داخل قلعة، فتفقد اتصالك بمصادر قوتك وسلطتك. وتبتعد أذنك عن سماع ما يجري حولك، وتفقد إحساسك بالتناسب. وبدلاً من أن تكون أسلم، فإنك تقطع نفسك عن نوع المعرفة التي تعتمد عليها حياتك. فإياك أن تعزل نفسك بعيداً عن الشوارع إلى درجة تجعلك عاجزاً عن سماع ما يدور من حولك، بما في ذلك المؤامرات ضدك.

مراعاة القانون

أمر لويس الرابع عشر ببناء قصر في ڤرساي له ولبلاطه في ستينات القرن السابع عشر، فكان قصراً ملكياً لا شبيه له في العالم. وكما هي الحال في خلية النحل، كان كل شيء يدور حول شخص العاهل. فكان يعيش محاطاً بالنبلاء، الذين خصصت لهم شقق معششة حول شقته، وكان قربهم منه معتمداً على درجتهم ورتبتهم. وكانت غرفة نوم الملك تحتل مركز القصر حرفياً، وكانت بؤرة اهتمام الجميع. وفي كل صباح كان الملك يتلقى التحية في هذه الغرفة بطريقة كالطقوس تعرف **بالشروق**.

وفي الثامنة صباحاً، يقوم المعاون الأول للملك، الذي كان ينام عند قدم السرير الملكي، بإيقاظ صاحب الجلالة. ثم يفتح الوصفاء الباب لإدخال الذين لهم مهمة في **الشروق**. وكان ترتيب دخولهم دقيقاً: يدخل أولاً أبناء الملك غير الشرعيين، وأحفاده، ثم الأمراء والأميرات ذوو الدم الملكي، فطبيبه وجرّاحه، يتبعهم كبار موظفي خزانة الثياب، والقارىء الرسمي للملك، فالمسؤولون عن الترفيه عن الملك. وبعد ذلك يصل المسؤولون الحكوميون المختلفون، بحسب ارتفاع المراتب. وأخيراً وليس آخراً يأتي الذين يحضرون **الشروق** بدعوة خاصة. وما أن

طويلاً ونحيلاً، ومغطى من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه بملابس القبور. وكان القناع الذي يغطّي الوجه مصنوعاً بحيث يشبه سحنة متيبّسةً لجثّة، بحيث تجد –حتى أقربُ النظرات إليه– صعوبةً في كشف الغش في ذلك القناع. ومع ذلك فقد كان يمكن للمعربدين المجانين المتواجدين في الحفلة أن يتحملوا ذلك كله وإن لم يقبلوه. ولكن المتنكّر كان قد ذهب في تنكّره إلى حد أنه جعل من ذلك النوع من الأقنعة نمطاً يمثل الموت الأحمر. فقد كان ثوبه ملطخاً بالدم. وكان وجهه العريض بكل ملامح سحنته، مرشوشاً بالرّعب القرمزي... وعلى الفور، ألقى حشدٌ من المعربدين بأنفسهم في الشقّة السوداء. وأمسكوا بتلابيب المتنكّر الطويل القامة الذي وقف منتصباً بلا حراك في ظل الساعة الآبنوسيّة، وشهقوا برعب لا يوصف عندما اكتشفوا أن الأكفان الرهيبة، والقناع الذي يشبه جثث الأموات، التي تعاملوا معها بكل تلك الخشونة العنيفة، لم يكن في داخلها أي شكل ملموس. وبذلك أدركوا أن الموت الأحمر كان حاضراً. فقد تسلّل إليهم كلصٍّ في الليل، وأسقط المعربدين واحداً بعد الآخر

تصل هذه الصيغة الاحتفالية إلى نهايتها حتى يكون قد تكدس في الغرفة أكثر من مائة من رجال الحاشية الملكية والزوار.

وكان اليوم يُنَظَّم بحيث يوجه نشاط القصر كله إلى الملك ويمرّ عن طريقه. فكان لويس محاطاً على الدوام برجال الحاشية والموظفين، وكلهم يطلبون مشورته وحكمه. ورداً على أسئلتهم كلها كان جوابه المعتاد هو: «سوف أرى».

وكما لاحظ سان سيمون، «إذا التفت الملك إلى شخص مّا وطرح عليه سؤالاً، أو أبدى ملاحظة تافهة، فإن عيون الحاضرين جميعاً تتجه إلى ذلك الشخص. إذ أن ذلك كان اهتماماً يصبح موضعاً للحديث، ومؤشراً يدل على ازدياد النفوذ». ولم تكن هناك إمكانية للخلوة في القصر، حتى للملك ـ فقد كانت كل غرفة متصلة بأخرى، وكل قاعة تؤدي إلى غرف أكبر يتجمع فيها النبلاء باستمرار. وكانت أعمال كل واحد متداخلة ومعتمدة اعتماداً متبادلاً مع أعمال الآخرين. ولم يكن أي شيء أو أي شخص يمر بدون ملاحظة. وقد كتب سان سيمون: «لم يكن الملك يكتفي بالاهتمام بحضور كل طبقة النبلاء العليا في بلاطه، بل كان يطلب الشيء نفسه من الطبقة الدنيا كذلك. ففي **شروقه وغروبه**، وفي وجباته، وفي حدائقه في ڤرساي كان يتلفت حوله دائماً فيلاحظ كل شيء. وكان ينزعج ويتضايق إذا لم يعش أبرز النبلاء في البلاط بشكل دائم. أما أولئك الذين لا يظهرون أبداً أو لا يأتون إلاّ نادراً فكانوا يستثيرون سخطه الكامل. وإذا رغب أحد منهم في شيء كان الملك يقول بعجرفة: «أنا لا أعرفه».. فيكون ذلك الحكم قطعياً لا رجعة فيه.

في قاعات قصفهم المبلّلة بالدم، فمات كل منهم على الهيئة اليائسة لسقطته. بل لقد لفظت الساعة الآبنوسية آخر أنفاسها هي الأخرى، مع آخر المرحين، وانطفأت شعلات المراجل، وسيطرت الظلمة، والخراب، والموت الأحمر على الجميع سيطرة لا حدود لها.

قناع الموت الأحمر
إدغار آلن بو،
1849-1809

التفسير

وصل لويس الرابع عشر إلى السلطة عند انتهاء حرب الفروند الأهلية الرهيبة. وكان المحرض الرئيسي على تلك الحرب هم النبلاء الذين كان سخطهم عميقاً على سلطة العرش المتعاظمة، وكانوا يحنّون

إلى أيام الإقطاع، عندما كان السادة اللوردات يحكمون إقطاعياتهم الخاصة ولم يكن للملك عليهم سلطة تذكر. وقد خسر النبلاء الحرب الأهلية، ولكنهم ظلوا زمرة مشاكسة ساخطة.

فتركيب ڤرساي الهيكلي إذن كان أكثر بكثير من نزوة متحللة لملك محب للبذخ. بل كان يخدم غرضاً حساس الأهمية، وهو قدرة الملك على إبقاء عينه وأذنه مسلطتين على كل شيء وكل شخص. فطبقة النبلاء المعتزة بنفسها تضاءلت لتصبح زمرة من المتشاحنين حول الحق في مساعدة الملك على ارتداء ملابسه في الصباح فلم تكن توجد فرصة للخلوة الحميمة أو الانعزال ههنا. ذلك أن لويس الرابع عشر قد تفهم ـ منذ وقت مبكر جداً ـ أن عزل الملك لنفسه هو شيء شديد الخطورة. ففي غيابه سوف تتنامى المؤامرات كأنها نبات الفطر بعد المطر، وتتبلور العداوات إلى زمرٍ وطوائف، ويندلع التمرد قبل أن تتاح له فرصة إبداء رد فعله. ولمكافحة هذا الخطر لم يكن يكفي تشجيع الحياة الاجتماعية والانفتاح، بل إن ذلك كله ينبغي تنظيمه وتوجيهه بصورة رسمية.

وقد ظلت هذه الظروف سائدة في ڤرساي طيلة عهد لويس كله، أي خمسين عاماً من السلم النسبي والهدوء، وطيلة هذه المدة لم يكن يسقط دبوس دون أن يسمعه لويس.

> إن الوحدة خطرة على العقل، دون أن تكون موائمة للفضيلة... تذكّر أن الشخص المتوحد هو مترفٍ بالتأكيد، ولعله مؤمن بالخرافات، وربما يكون مجنوناً.
>
> *(الدكتور صاموئيل جونسون، 1709-1784)*

مفاتيح السلطة

يجادل ماكيافيللي بأن القلعة، بالمعنى العسكري الدقيق، هي غلطة على الدوام. إذْ أنها تصبح رمزاً لانعزال السلطة، وهي هدف سهل لأعداء بانيها. فالقلاع المصممة للدفاع عنك إنما تقطعك عملياً عن

المساعدة وتقلل المرونة المتاحة لك. فهي قد تبدو منيعة. ولكن عند لجوئك إلى إحداها يصبح الجميع على علم بمكانك، وحتى لو لم ينجح الحصار ـ ولا حاجة لنجاحه ـ فإنه يحول قلعتك إلى سجن. والقلاع بمساحاتها الصغيرة والمحصورة مكشوفة جداً كذلك لانتشار الطاعون والأمراض المعدية. ومن الناحية التخطيطية الاستراتيجية، لا تقدم عزلة القلعة أي حماية، بل هي بالفعل تخلق من المشاكل أكثر مما تحلّ.

ونظراً لأن البشر مخلوقات اجتماعية بطبعها فإن السلطة تعتمد على التفاعل والتداول الاجتماعيين. ولتعزيز سلطتك يتعين عليك أن تضع نفسك في مركز الأشياء، كما فعل لويس الرابع عشر في ڤرساي. وينبغي أن يدور النشاط كله حولك، وأن تكون واعياً بكل ما يحدث في الشارع، وبكل شخص قد يدبّر ضدك مؤامرات. وبالنسبة لمعظم الناس يأتي الخطر حين يشعرون بأنهم مهددون. ففي مثل هذه الأوقات يميلون إلى التراجع ورصّ الصفوف، للعثور على الأمن في نوع من القلاع، غير أنهم في غمرة هذا كله يبدأون في الاعتماد على دائرة أصغر فأصغر للحصول على المعلومات، فيفقدون زاوية النظر الصحيحة إلى الأحداث من حولهم. كما يفقدون القدرة على المناورة ويصبحون أهدافاً سهلة. وتجعلهم عزلتهم يرتابون في الآخرين إلى حد الهوس. وكما في الحروب وفي معظم ألعاب التخطيط الاستراتيجي، فإن العزلة غالباً ما تسبق الاندحار والموت.

وفي حالات الخطر وانعدام اليقين، أنت بحاجة إلى مكافحة هذه الرغبة في الانكفاء إلى الداخل. وبدلاً من ذلك اجعل وصول الآخرين إليك أسهل، وابحث عن الحلفاء القدامى وكوّن تحالفات جديدة. وافرض نفسك على دوائر مختلفة أكثر فأكثر. فقد كانت هذه هي الخدعة التي طبقها ذوو السلطة قروناً متطاولة.

وُلِدَ السياسي الروماني شيشرون في طبقة النبلاء الدنيا، ولم تكن لديه فرصة تذكر لاكتساب السلطة. إلاّ إذا تدبَّر أمر إيجاد مكان له بين

الأرستقراطيين الذين كانوا يسيطرون على المدينة. وقد نجح في ذلك بشكل لامع، فحدَّد كل شخص له نفوذ، وتفهم كيف يرتبط ذوو النفوذ بعضهم ببعض، واختلط بهم في كل مكان، وعرف الجميع، وكانت له شبكه واسعة من الاتصالات، بحيث أي عدوٍّ هنا كان يمكن موازنته بحليف هناك.

وكان السياسي الفرنسي تاليران يلعب اللعبة بالطريقة نفسها. فرغم تحذّره من واحدة من أعرق الأسر الأرستقراطية في فرنسا، فقد كان يتعمَّد التركيز على البقاء دائماً على اتصال بما يحدث في شوارع باريس، مما أتاح له أن يتنبأ بالاتجاهات والمتاعب، بل كان يجد بعض السرور في الاختلاط بأنماط من المجرمين المحاطين بظلال من الشبهات، فزوَّدوه بمعلومات ثمينة. وكلما كانت هناك أزمة، وانتقال للسلطة ـ كما في نهاية حكومة الإدارة، وسقوط نابليون، وتنازل لويس الثامن عشر ـ كان تاليران يتمكَّن من البقاء، بل والانتعاش، لأنه لم يتقوقع على نفسه ضمن دائرة صغيرة، بل كان يصنع علاقات مع النظام الجديد.

ولهذا القانون صلة بالملوك والملكات، وذوي السلطة العليا: ففي اللحظة التي تفقد فيها الاتصال بشعبك، وتبحث عن الأمن في العزلة، يكون التمرد آخذاً في الاختمار. فلا تتصوَّر نفسك أبداً من السموّ بحيث يمكنك أن تقطع نفسك حتى عن أخفض المراتب. فبالتراجع إلى قلعة تجعل نفسك هدفاً سهلاً لرعاياك المتآمرين، الذين يعتبرون انعزالك إهانة لهم، وسبباً للعصيان.

وبما أن البشر مخلوقات اجتماعية، فإن هذا ينجم عنه أن الفنون الاجتماعية تجعلنا أناساً صحبتهم سارَّة لا يمكن ممارستها إلاَّ بالتعرض للتواصل والتداول باستمرار. فكلما زاد اتصالك بالآخرين، زادت كياستك وطمأنينتك. أما الانعزال من جهة أخرى فإنه يولِّد بشاعةً خرقاء في إشاراتك، ويؤدي إلى مزيد من العزلة، عندما يأخذ الناس في تجنّبك.

في سنة 1545، قرَّر الدوق كوزيمو دي مديتشي الأول أنه، لضمان خلود اسمه فسوف يوصي برسم لوحات جدارية للمصلَّى الرئيسي في كنيسة سان لورينزو في فلورنسا. وكان لديه كثير من الفنانين العظام كي يختار منهم. وفي آخر الأمر وقع اختياره على جاكوبو دا بونتورمو. وكان هذا الفنان قد طعن في السن، فأراد أن يجعل هذه اللوحات الكبيرة رائعته الفنية وتراثه الباقي. وكان قراره الأول هو عزل الكنيسة بأسوار وتقسيمات وستائر حاجبة. إذْ أنه لم يرد أن يشهد أيُّ شخصٍ عملية خلق تحفته، أو يسرق أفكاره. وكان يريد أن يتفوَّق على مايكل آنجيلو نفسه. وعندما اقتحم بعض الشباب المصلى بدافع الفضول، قام جاكوبو بعزله وإغلاقه أكثر.

وملأ بونتورمو سقف المصلى بمشاهد إنجيلية ـ عملية الخلق، آدم وحواء، سفينة نوح، وهكذا دواليك. وفي أعلى الجدار الأوسط رسم المسيح بجلاله وهو يحيي الموتى يوم القيامة. وعمل الفنان في ذلك المصلى أحد عشر عاماً، ولم يكن يغادره إلاَّ نادراً، فقد تطور لديه رهاب من الاتصال بالبشر وكان يخشى سرقتهم لأفكاره.

ومات بونتورمو قبل أن يكمل تلك اللوحات الجدارية، التي لم تبق منها أية لوحة. ولكن كاتب عصر النهضة العظيم، فازاري، صديق بونتورمو الذي شاهد تلك اللوحات بُعَيْد وفاة الفنَّان، ترك وصفاً عن مظهرها. كان فيها انعدام كامل للتناسب، ومناظر تصطدم بأخرى، وشخصيات قصة إلى جانب شخصيات قصة أخرى بلا نظام في أعداد تبعث على الجنون. كان بونتورمو قد اعتراه هوس التفاصيل، بينما فقد أي إحساس بالتركيب الكلي الشامل للصورة. وتخلَّى فازاري عن وصف اللوحات الجدارية بالقول إنه لو استمر في ذلك «فسوف أُصاب بالجنون وأشتبك مع هذا الرسم، تماماً كما أعتقد أن جاكوبو، في الأعوام الأحد عشر التي أمضاها يعمل فيه قد شبك نفسه وشبك كل من رأى ذلك الرسم». وبدلاً من تتويج حياة بونتورمو العملية، فإن ذلك العمل كان سبب خرابه.

لقد كانت تلك اللوحات الجدارية تعادل بصرياً آثار العزلة على الذهن البشري: وهي آثار تمثلت في فقدان الإحساس بالتناسب، والهوس بالتفاصيل، مصحوبين بالعجز عن رؤية الصورة الأكبر، وإنتاج نوع من القبح المبالغ فيه الذي لم يعد يوصل شيئاً لمشاهده. فمن الواضح إذن أن العزلة مميتة للفنون الإبداعية كما هي مميتة للفنون الاجتماعية. فشكسبير هو أحد أشهر كاتب في التاريخ لأنه، كمختص في الدراما على المسرح الشعبي، قد انفتح على الجماهير، وجعل عمله سهل الوصول إلى الناس مهما كانت ثقافتهم وأذواقهم. فالفنانون الذين يحفرون لأنفسهم وِجَاراً منغلقاً في قلعتهم يفقدون الإحساس بالتناسب، فلا يوصل عملهم شيئاً إلاَّ لدائرتهم الضيِّقة. ومثل هذا الفن يبقى محصوراً ولا تأثير له ولا نفوذ.

وأخيراً فإن السلطة، بما أنها من خلق البشر، تتوسَّع حتماً عن طريق الاتصال بالناس الآخرين. وبدلاً من السقوط في عقلية القلعة، انظر إلى العالم بالطريقة التالية: إنه يشبه ڤرسايَ واسعة، تتصل كل غرفة فيها بأخرى. وأنت بحاجة إلى القدرة على النفوذ بالانسياب إلى دوائر مختلفة والخروج منها، والاختلاط بأنماط شتى، إذ أن هذا النوع من قابلية الحركة والاتصال الاجتماعي يحميك من المتآمرين، الذين سيعجزون عن عزلك عن حلفائك. فبقاؤك متحركاً على الدوام يتيح لك الاختلاط والتمازج في غرف القصر، بحيث لا تجلس ولا تستقر في مكان واحد أبداً. وليس هناك صيَّاد يقدر على تسديد هدفه على مثل هذا الكائن السريع الحركة.

صورة: القلعة، مرتفعة في أعلى التل، تصبح القلعة رمزاً لكل ما هو كريه في القوة والنفوذ والسلطة. فيخونك سكان المدينة لأول عدوّ يأتي نحوهم وبالانقطاع عن الاتصال والمعلومات والأخبار، فإن القلعة تسقط بسهولة.

الشاهد: إن الأمير الجيِّد والحكيم، الذي يرغب في الحفاظ على شخصيته هذه وتجنّب إعطاء أبنائه فرصة ليصيروا ظالمين، لن يبني قلاعاً قطّ، كي يعتمد أبناؤه على النوايا الحسنة والإرادة الطيِّبة لرعاياهم، وليس على قوة القلاع.

(نيقولو ماكيافيللي، 1469-1527)

الانقلاب

إن اختيار العزلة لا يكاد يكون صحيحاً أو دالاً على سماحة النفس أبداً. فبدون توجيه أذنك إلى ما يحدث في الشوارع، ستعجز عن حماية نفسك. إن الشيء الوحيد الذي لا يستطيع التواصل الإنساني المستمر أن يسهله هو التفكير. إن وزن ضغط المجتمع الدافع نحو الانسجام وانعدام المسافة بينك وبين الآخرين، يمكن أن يجعل من المستحيل التفكير بوضوح فيما يحدث من حولك. ولذا فإن الانعزال باعتباره إجراءً مؤقتاً تلجأ إليه قد يساعدك على اكتساب زاوية النظر الصحيحة، فقد أنتجت السجون كثيراً من المفكِّرين الجادِّين، إذ أنه ليس لدينا ما نفعله في السجن سوى التفكير. فماكيافيللي لم يستطع تأليف كتابه: **الأمير** إلاّ عندما وجد نفسه منفياً ومنعزلاً في مزرعة بعيدة عن مؤامرات فلورنسا السياسية.

غير أن الخطر هو أن هذا النوع من العزلة يولّد كل أنواع الأفكار الغريبة والمنحرفة. فقد تكسب زاوية النظر الصحيحة إلى الصورة الأكبر، ولكنك تفقد الإحساس بصغرك ومحدودية قدراتك. كما أن عزلتك كلما ازدادت صار خروجك منها أصعب عندما تختار الخروج ـ ذلك أنها تغطسك عميقاً في وعث رمالها المتحرِّكة دون أن تلاحظ. فإن كنت محتاجاً إلى وقت للتفكير إذن، فاختر الانعزال كملجأ أخير فقط، ولا تتناول مثل هذا الدواء إلاّ بجرعات صغيرة. واهتمّ بإبقاء طريق عودتك إلى المجتمع مفتوحاً.

القانون

19

إعرف مع من تتعامل ـ لا تُغْضِب الشخص غير المقصود

الحكم

هناك أنواع كثيرة من الناس في العالم، ولا يمكنك أبداً أن تفترض أن رد فعل الجميع على خططك الاستراتيجية سيكون بالطريقة نفسها. إذا خدعت بعض الناس أو تفوَّقت عليهم في المناورة، فسوف يمضون بقية حياتهم في السعي للانتقام. فهم ذئاب في ملابس الحملان. وإذن فإن عليك أن تختار ضحاياك وخصومك بعناية ـ وإياك أن تغضب، أو تخدع الشخص غير المقصود.

obeikandl.com

الخصوم، والمغفلون، والضحايا: دراسة تمهيدية للنماذج

عندما تلتقي برجل يحمل سيفًا، أَشْهِرْ سيفك: ولا ترتل شعراً لشخص ليس بشاعر.

من تشآن: البوذي التقليدي

مقتبس من كتاب رعد في السماء

ترجمة توماس كليري، 1993

ستلتقي، في صعودك إلى السلطة، بسلالات كثيرة من الخصوم، والمغفلين، والضحايا. إن أعلى شكل من فن السلطة هو القدرة على التمييز بين الذئاب والحملان، والثعالب والأرانب، والصقور ونسور الجِيَف. فإذا أجدت هذا التمييز فإنك ستنجح بدون الحاجة إلى إرغام أي شخص بطريقة زائدة عن حدِّها. أما إذا كنت تتعامل بشكل أعمى مع كل من تصادفه في طريقك، فستكون حياتك مليئة بالأسى المستمر، إذا كنت ستعيش مثل هذه الحياة الطويلة أصلاً. فهناك أهمية حسَّاسة للقدرة على تمييز أنواع البشر، والتصرّف بموجب هذا التمييز. وفيما يلي أصعب وأخطر أنواع الأنماط الخمسة المستهدفة في الغابة كما حدَّدها الفنانون ــ في مجال الخداع وغيره ــ في الماضي.

الرجل المتغطرس والمغرور: رغم أن هذا الرجل قد يحاول إخفاء الأمر في البداية، فإن غروره الحساس المتفجِّر يجعله شديد الخطورة. ذلك أن أي ازدراء يتصوَّر أنه تعرَّض له سيؤدي إلى انتقام طاغٍ ساحق العنف. وقد تقول لنفسك: «ولكنني لم أقل سوى كذا وكذا في حفلة كان الجميع فيها سكارى. . .» ولكن ذلك لن يهم. فليس هناك عقلانية وراء رد الفعل الزائد عن الحد. ولذا لا تضيِّع الوقت في محاولة فهم مثل هذا الرجل. فإذا شعرت في أية نقطة أثناء تعاملك معه أن لديه غروراً زائد الحساسية زائد الانفعال، فاهرب. ومهما كان ما تأمله منه، فإنه لا يستحق بذل أي جهد.

انتقام لوب دي آغويري

تتضح شخصية [لوب دي] آغويري اتضاحاً كاملاً في حكاية من تاريخ غارسيلا نودي لافيغا، الذي يروي أن آغويري كان سنة 1548 أحد جنود فصيلة تحرس عبيداً من الهنود الحمر في مناجم بوتوست [في بوليفيا] إلى مستودع تابع للخزينة الملكية. وقد حُمِّلَ الهنودُ بصورةٍ غير قانونية بكمّيات

الرجل غير الآمن بشكل لا أمل فيه: لهذا الرجل علاقة بالنمط المغرور والمتغطرس، ولكنه أقل عنفاً؛ والتعرّف عليه أصعب. فذاته الأنانية هشَّة، وشعوره بنفسه قلق وغير مستقر. وإذا شعر بأنه هوجم أو خُدِع، فإن الأذى يظل يعتمل في داخله، فيهاجمك بعضّات قد تستمر إلى الأبد قبل أن تصل إلى حجم يمكنك ملاحظته أو الشعور به. فإذا اكتشفتَ أنك قد خدعت أو آذيتَ رجلاً كهذا، فاختفِ لمدة طويلة. ولا تبقَ بالقرب منه، وإلاَّ راح يقضمك رويداً رويداً حتى الموت.

السيد تشكك: وهذا نوع آخر من السلالات المذكورة أعلاه. فهو جوزيف ستالين مستقبلي. يرى ما يريد أن يرى في الآخرين ـ وهو أسوأ شيء في العادة ـ، ويتخيَّل أن الجميع يستهدفونه. والواقع أن السيد تشكك هو الأقل خطراً بين الثلاثة. فهو غير متوازن في الأصل، ولذا يسهل خداعه، تماماً كما كان ستالين نفسه ينخدع باستمرار. فاستغل طبيعته الشكاكة، لجعله ينقلب على الناس الآخرين. ولكن احترس، وكن حذراً إذا صرت أنت هدفاً لشكوكه.

الثعبان ذو الذاكرة الطويلة: أذا أُوذي هذا الرجل أو خُدِع، فإنه لن يظهر غضباً على السطح الخارجي، بل يُجْري حساباته وينتظر. ثم، عندما يكون في موقع يمكّنه من قلب الموائد، فسوف ينتقم انتقاماً يتميَّز بالهدوء والدهاء وبرودة الأعصاب. ميّز هذا الرجل من حساباته ومكره في مختلف مجالات حياته. فهو في العادة بارد وغير عاطفي. فكن على حذر مضاعف من هذا الثعبان، وإذا كنت قد آذيته بطريقةٍ مّا فإمّا أن تسحقه سحقاً كاملاً، أو أن تبعده عن نظرك.

الرجل العادي، غير المدعي، وغير الذكي على الأغلب: قد تنتصب أذناك عندما تعثر على مثل هذه الضحيّة المغرية. ولكن خداع هذا الرجل أصعب مما تتصوَّر بكثير. . ذلك أن إيقاعه في الفخ يتطلَّب في الغالب ذكاءً وخيالاً ـ وإحساساً بالمردودات الممكنة. فالرجل البليد لا يلتقط الطعم لأنه لا يتعرَّف عليه، إذ أن غفلته تصل إلى هذا الحد من

كبيرة من الفضة. فقبض موظّفٌ محليٌ على آغويري، وحكم عليه بمئتي جلدة بدل غرامة بسبب اضطهاده للهنود «وعندما تلقى الجندي آغويري إشعاراً بالحكم توسّل إلى القاضي أن يعدمه بدل جَلْده، لأنه سَيِّدٌ بالولادة... ولكن توسُّلاته لم تؤثّر على القاضي الذي أمر المنفّذ أن يأتي بحيوان وينفذ الحكم. فجاء المنفّذ إلى السجن، ووضع آغوريري على الحيوان... وسيق الحيوان، وتلقّى الجندي جلدات السوط...».

وعندما أطلق سراحه، أعلن عن نيته في قتل المسؤول الذي حَكَمَ عليه، وهوالقاضي إيسكويفل. وانتهت مدَّة ولاية إيسكويفل في منصبه فهرب إلى ليما، على بعد ثلاثمئة وعشرين فرسخاً. ولكن في غضون خمسة عشر يومًا لحق به آغويري. فسافر القاضي الخائف إلى كويتو في رحلة امتدت إلى مسافة أربعمئة فرسخ. وخلال عشرين يوماً وصل آغويري إلى هناك. وحسب رواية غارسيلاسو «فإن إيسكويفل عندما سمع بوجوده انطلق في رحلة أخرى مبتعداً خمسمئة فرسخ أخرى إلى كوزكو. ولكن آغويري وصل إلى هناك في بضعة أيام، مسافراً على قدميه حافياً، قائلاً: إن الرجل المجلود لا يحق له أن يركب حصاناً، أو يذهب إلى حيث يراه الآخرون.

عدم التمييز. والخطر من هذا الرجل لا يأتي من كونه سيؤذيك أو يسعى للانتقام، بل من كونه سيضيِّع وقتك وطاقتك ومواردك، وحتى عقلانيتك في محاولتك خداعه. فليكن لديك اختبار جاهز لمثل هذا الهدف ـ نكتة أو قصة. فإن كان رد فعله عليها حرفياً تماماً، فهذا هو نمط الرجل الذي تتعامل معه. فإذا استمررت فتحمَّل مخاطر ذلك بنفسك.

انتهاك القانون

الانتهاك الأول:

في أوائل القرن الثالث عشر، استطاع محمد، شاه خوارزم، أن يقيم، بعد حروب كثيرة، إمبراطوريةً امتدَّت غرباً إلى تركيا الحديثة وجنوباً إلى أفغانستان. وكان مركز الإمبراطورية هو العاصمة الآسيوية العظيمة سمرقند. وكان للشاه جيش قوي جيِّد التدريب، وكان باستطاعته أن يحشد مائتي ألف مقاتل في غضون أيام.

وفي سنة 1219، استقبل الشاه محمد سفارة من زعيم قَبَلِيٍّ جديد إلى الشرق منه، هو جنكيزخان. وشملت السفارة كل أنواع الهدايا إلى محمد العظيم، وكانت تمثل أفضل البضائع من إمبراطورية الخان المغولية الصغيرة الآخذة في التنامي. كان جنكيزخان يريد إعادة فتح طريق الحرير إلى أوروبا. وعرض أن يتقاسمه مع محمد، في الوقت الذي وعد فيه بالسلام بين الإمبراطوريتين.

ولم يكن محمد يعرف محدث النعمة القادم من الشرق هذا، الذي بدا له شديد الغرور يحاول أن يتحدَّث كَنِدٍّ مساوٍ لمن هو متفوِّق عليه بوضوح. فتجاهل عرض الخان. وحاول الخان مرة أخرى، فأرسل قافلة من مائة بعير، محمَّلة بأندر الأشياء التي كان قد نهبها من الصين. غير أن القافلة قبل وصولها إلى محمد صادرها إينالتشيك، حاكم المنطقة المجاورة لسمرقند فاستولى عليها لنفسه وقتل قادتها.

وكان جنكيزخان متأكداً من أن ما حدث كان خطأ ـ وأن إينالتشيك

وبهذه الطريقة لاحق آغويري قاضيه طيلة ثلاثة أعوام وأربعة أشهر».

وتعب إيسكويفل من هذه المطاردة. فبقي في كوزكو، التي كان يحكمها عمدة صارم شعر إيسكويفل أنه سيكون معه في أمان من آغويري. فاتخذ له بيتاً قرب الكاتدرائية، ولم يجرؤ على الخروج منه قَطُّ إلاَّ وهو مسلح بسيف وخنجر. «غير أن آغويري دخل بيته ظهراً يوم إثنين، وطاف فيه بأجمعه، فعبر ممراً وصالوناً وغرفة نوم وغرفة داخلية كان القاضي يحتفظ بكتبه فيها، فوجده في آخر الأمر مستغرقاً في النوم فوق واحدٍ من كتبه، فطعنه حتى الموت، ثم خرج. ولكنه عندما وصل إلى باب البيت اكتشف أنه قد نسي قبّعته، فبلغ به الطيش أن عاد إلى الداخل واستردّها، ثم خرج يمشي في الشارع كأن شيئاً لم يكن».

الحلم الذهبي: الباحثون عن إلدورادو،

ووكر تشايمان،

1967

تصرَّف بدون موافقة محمد. فأرسل بعثة أخرى إلى محمد، يؤكد عرضه مرة أخرى ويطلب معاقبة ذلك الحاكم. وفي هذه المرة أمر محمد بقطع رأس أحد السفراء، وأعاد السفيرين الباقيين بعد حلق شعر رأسيهما ـ فكانت تلك إهانة مرعبة حسب قانون الشرف المغولي. فأرسل الخان رسالة إلى الشاه: «لقد اخترتَ الحرب. وما سيحدث سيحدث. أمّا ما هو فإننا لا نعلم، بل الله وحده هو الذي يعلم». ثم حشد قوَّاته وهاجم مقاطعة إينالتشيك في سنة 1220، حيث استولى على عاصمتها وأسر الحاكم، وأمر بإعدامه بصبّ الفضة المصهورة في عينيه وأذنيه.

وعلى مدى العام التالي، قاد الخان غارات في سلسلة من الهجمات غير النظامية التي تشبه حرب العصابات ضد جيش الشاه الذي كان أكبر من جيش الخان بكثير. وكانت طريقته جديدة كل الجدّة في ذلك العصر ـ فقد كان جنوده قادرين على الحركة الشديدة السرعة على ظهور الخيل. وقد أتقنوا فنّ إطلاق السهام من أقواسها أثناء الركوب. وقد أتاحت له سرعة حركة قوَّاته ومرونتها أن يخدع محمداً حول نواياه واتجاهات حركاته. وفي آخر الأمر استطاع أولاً أن يطوِّق سمرقند ثم يستولي عليها. فهرب محمد، وتوفي بعد ذلك بعام، بينما تحطَّمت إمبراطوريته الشاسعة ودُمِّرت. وصار جنكيزخان السيِّد الوحيد لسمرقند، وطريق الحرير، ومعظم آسيا الشمالية.

التفسير

إياك أن تفترض أن الشخص الذي تتعامل معه أضعف منك أو أقل أهميّة. فبعض الرجال لديهم حلم يجعل غضبهم من الإهانة بطيئاً، مما يجعلك تخطىء في الحكم على قدرة تحمّلهم، ولا تقلق من عواقب إهانتهم. غير أنك إذا أهنت شرفهم وعزّة أنفسهم، فسوف يغمرونك بطوفانٍ من العنف يبدو مفاجئاً وكاسحاً. . ، إذا فكَّر المرء في بطء غضبهم. فإذا أردت أن ترفض ما يعرضه الناس عليك فإن من الأفضل أن تفعل ذلك بطريقة مهذَّبة وفيها احترام لهم، حتى ولو شعرت أن طلبهم

وقح أو أن عرضهم سخيف. وإياك أن ترفضهم بشكل مهين حتى تعرفهم على نحو أفضل؛ فربما يكون مَنْ تتعامل معه هو جنكيزخان.

الانتهاك الثاني:

في أوائل العقد الثاني من القرن العشرين، شكَّل أبرع المحتالين في أميركا حلقة لفنَّاني الاحتيال مقرها في دنفر بولاية كولورادو. فكانوا في أشهر الشتاء ينتشرون في الولايات الجنوبية، يمارسون حرفتهم. وفي سنة 1920، كان جو فيوري، أحد زعماء الحلقة، يشق طريقه عبر تكساس، ويكسب مئات الألوف من الدولارات بألعاب الخديعة التقليدية. وفي فورت وورث، التقى بمغفل يدعى ج. فرانك نورفليت، وكان تاجر أبقار يملك مزرعة كبيرة. وسقط نورفليت في الفخ. فاقتنع بالثروة القادمة، فسحب رصيده المصرفي البالغ 45000 دولار، وسلَّمه إلى فيوري وشركائه، وبعد بضعة أيام أعطوه «ملايينه»، التي اتضح أنها كانت بضعة دولارات جيِّدة ملفوفة حول رزمة من قصاصات الصحف.

كان فيوري ورجاله قد مارسوا هذه الأحابيل الخادعة مئات المرات من قبل. وكان المغفل في العادة يشعر بالحرج من حمقه إلى درجة أنه كان يتعلَّم درسه بهدوء ويتقبَّل خسارته. ولكن نورفليت لم يكن مثل المغفلين الآخرين. فذهب إلى رجال الشرطة، الذين أخبروه أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا له شيئاً يذكر، فقال لرجال الشرطة السرِّيِّين: «إذن سألاحق أولئك الناس بنفسي، وسوف أنال منهم، حتى لو استغرق ذلك باقي حياتي». فتولَّت زوجته إدارة المزرعة، بينما راح نورفليت يتجوَّل في البلاد، باحثاً عَمَّن سُلِبوا في اللعبة نفسها. فتقدَّم مغفَّل منهم، وتعرَّف الاثنان على واحدٍ من فنَّاني التحايل في سان فرانسيسكو، واستطاعا أن يوصلاه إلى السجن. فانتحر بدلاً من مواجهة حكم بالحبس فترة طويلة.

وتابع نورفليت ملاحقتهم، فتوصَّل إلى محتال آخر منهم في مونتانا، وشدّ وثاقه كالعجل، وجرَّه عبر الشوارع الموحلة إلى سجن

الغراب والخروف

جلست أنثى غراب على ظهر خروف، فراح يتنقل بها جيئة وذهوباً على غير إرادة منه فترة طويلة، وأخيراً قال لها: «لو أنك عاملتِ كلبًا بهذه الطريقة للقيتِ ما تستحقِّين من أنيابه الحادَّة». فردّت أنثى الغراب على ذلك بقولها: «إنني أحتقر الضعيف، وأستسلم للقويّ. وأعرف مَنْ أستطيع أن أتنمّر عليه، ومَنْ يتعيَّن عليَّ أن أتملق عنده. وبذلك آمل أن أطيل عمري وأستمتع بحياةٍ طيِّبة».

خرافات

إيسوب، القرن السادس قبل الميلاد

المدينة. ولم يكتف بالسفر عبر الولايات المتحدة، بل ذهب إلى إنكلترا، وكندا والمكسيك بحثاً عن جو فيوري، وكذلك عن يده اليمنى، المدعو: و.ب. سبنسر، فعثر على سبنسر في مونتريال، فطارده عبر الشوارع. فهرب سبنسر، ولكن المزارع نورفليت ظلَّ على إثره، حتى لحق به في مدينة سولت ليك. ففضَّل سبنسر رحمة القانون على ثورة غضب نورفليت، فسلَّم نفسه.

وعثر نورفليت على فيوري في جاكسونڤيل، بولاية فلوريدا، وحمله بنفسه ليواجه العدالة في تكساس. ولكنه لم يرد أن يتوقَّف عند هذا الحدّ. وتابع طريقه إلى دونڤر وهو مصمِّم على تحطيم الحلقة بكاملها. فلم يصرف مبالغ طائلة من المال في هذه المطاردة فحسب، بل سنة أخرى من عمره كذلك، واستطاع أن يضع جميع زعماء حلقة النصب والاحتيال وراء القضبان، بل إن بعضهم ممَّن لم يقبض عليهم بلغ ذعرهم منه حداً جعلهم يسلِّمون أنفسهم كذلك.

وبعد خمسة أعوام من المطاردة دمَّر نورفليت بمفرده أكبر تجمّع لفنّاني الاحتيال في أميركا. فأدَّى الجهد إلى إفلاسه وتدمير زواجه ولكنه مات وهو راضٍ.

التفسير

يقبل معظم الناس ذلّ وقوعهم ضحايا للاحتيال بنوع من التسليم. فيتعلَّمون درسهم، ويدركون أنه ليس هناك شيء اسمه غداء مجَّاني. وأن طَمَعَهُم هو الذي أوقعهم عندما أملوا في الحصول على مال سهل. غير أن البعض يرفضون تناول دوائهم. وبدلاً من التفكير في سذاجتهم وجشعهم، يرون أنفسهم ضحايا أبرياء كلياً.

ومثل هؤلاء الرجال قد يبدون حَمَلَة رسالة تنشد العدالة والنزاهة، ولكنهم في الواقع يشعرون بعدم الأمان إلى حد مفرط. فوقوعهم ضحية الخداع والاستغفال يوقظ في داخلهم شكوكهم بأنفسهم وينشطها

فيحاولون بشكل مستميت أن يصلحوا الضرر. هل كان انتقام نورفليت من الحرج الذي شعر به نتيجة سلب المحتالين أمواله يستحق أن يرهن في سبيله مزرعته، ويحطِّم زواجه، ويقضي سنوات وهو يستدين المال ويعيش في الفنادق الرخيصة؟ بالنسبة لأمثال نورفليت في هذا العالم، فإن التغلب على حرجهم يستحق أي ثمن.

ولكل الناس مخاوف مقلقة من انعدام الأمن، وكثيراً ما تكون الطريقة الفضلى لخداع مغفل هي استغلال مخاوفه. أما في مجال السلطة فإن المسألة تتعلق بالدرجة. والشخص الذي يشعر بعدم الأمان أكثر من الآخرين بالتأكيد تُقدِّم حالتُه أخطاراً عظيمة. كن حذراً: إذا كنت تمارس الخداع أو التحايل من أي نوع، فادرس هدفك جيداً. فبعض الناس لا تحتمل مخاوفهم الأمنية وذاتيتهم الهشة أخف إيذاء أو إهانة. ولمعرفة ما إذا كنت تتعامل مع أناس من هذا النمط، اختبرهم أولاً، عن طريق نكتة على حسابهم مثلاً. فالشخص الواثق من نفسه سيضحك؛ أما الشخص القلق من انعدام أمنه بشكل زائد فسيبدي رد فعل كأنه تعرَّض لإهانةٍ شخصية. فإن كنت تشك في أنك تتعامل مع هذا النمط، فابحث عن ضحية أخرى.

الانتهاك الثالث:

في القرن الخامس قبل الميلاد، كان شْؤُونْغْ ـ إرْ، أمير شْئِين (في الصين الحالية) قد أرغم على الذهاب إلى المنفى. كان يعيش في حالة متواضعة ـ بل في فقرٍ أحياناً ـ منتظراً الوقت الذي يمكنه فيه الرجوع إلى الوطن واستئناف حياته كأمير. وكان ذات مرة ماراً عبر دولة شِينغْ، حيث عامله الحاكم بفظاظة، لأنه لم يعرف من هو. ورأى ذلك وزيرُ الحاكم، شو تْشَان، فقال: «إن هذا الرجل أمير له قيمته، فلو عاملته يا صاحب السمو بمجاملة عظيمة لجعلته مديناً لك بالعرفان!»، ولكن الحاكم لم يستطع أن يرى سوى حالة الأمير المتواضعة، فتجاهل هذه النصيحة وأهان الأمير ثانية. فحذَّر شو تشان سيدَه مرة أخرى، قائلاً: «إن كنت يا

صاحب السمو لا تقدر أن تعامل شُؤُونْغْ ـ إِرْ بمجاملة، فينبغي أن تقتله، كي تتجنَّب كارثة في المستقبل». فلم يكن رد الحاكم إلاَّ التهكم.

وبعد سنين، تمكن الأمير في آخر الأمر من العودة، وتغيَّرت ظروفه كثيراً، فلم يَنْسَ من كانوا كرماء معه ومن كانوا وقحين أثناء سنوات فقره. وكان أقل ما يكون نسياناً لمعاملته التي لقيها على يدي حاكم شِينْغْ. ففي أول فرصة حانت له حشد جيشاً كثيفاً وزحف على شينغ، فاستولى على ثماني مدن، ودمَّر المملكة، وأرسل ذلك الحاكم إلى المنفى بدوره.

التفسير

لا يمكنك أبداً التأكد من نوعية الشخص الذي تتعامل معه. فالرجل الذي لا أهمية له ولا موارد اليوم قد يصبح ذا سلطة غداً. فنحن ننسى كثيراً في حياتنا، ولكننا نادراً ما ننسى الإهانة.

فكيف كان لحاكم شِينْغْ أن يعرف أن الأمير شُؤُونْغْ ـ إِرْ كان من النمط الطموح، الماكر، الذي يحسب حساباته، باعتباره ثعباناً ذا ذاكرة طويلة؟ لم تكن هناك طريقة يعرف بها. قد يقول ـ ولكن بما أنه لم تكن هناك طريقة، فقد كان من الأفضل أن لا يغري بنفسه الأقدار باكتشاف ذلك. إذْ ليس هناك ما يمكن كسبه من إهانة شخص مّا دون ضرورة. ابتلعْ الحافز الدافع للإيذاء، حتى إذا كان الشخص الآخر ضعيفاً، لأن الرضا الناجم عن ذلك ضئيل بالمقارنة مع خطر إيذاء ذلك الشخص لك إن صار ذات يوم في مركز يمكنه من ذلك.

الانتهاك الرابع:

كان سنة 1920، عاماً رديئاً بشكل خاص لبائعي التحف الفنية الأميركيين. فأبناء جيل أقطاب اللصوصية من القرن الماضي ـ وهم كبار المشترين ـ كانوا قد بلغوا من العمر عتيّاً بحيث راحوا يتساقطون موتى كالذباب، ولم يكن قد برز مليونيرات جدد ليحلُّوا محلهم. وبلغت

الأمور من السوء حداً جعل عدداً من كبار البائعين، يقررون أن يجمعوا مواردهم معاً. فكان ذلك حدثاً لم يُسمع بمثله من قبل، إذْ أن بائعي التحف الفنية في العادة كانوا يتعايشون كالقطاط والكلاب.

وكان جوزيف دوفين، بائع التحف لأغنى ملوك المال في أميركا، يعاني أكثر من الآخرين في ذلك العام، وهكذا قرر أن يتماشى مع ذلك التحالف. فتكوَّنت المجموعة من أكبر خمسة بائعين في البلد. وبحثوا عن زبون جديد، فقرروا أن أفضل أمل أخير لهم هو هنري فورد، الذي كان أغنى رجل في أميركا آنذاك. ولم يكن قد دخل إلى سوق الفنّ بعد. فكان هدفاً كبيراً إلى درجة أن عملهم معاً كان شيئاً معقولاً لكسبه كزبون.

وقرَّر البائعون أن يجمعوا قائمة «أعظم مائة لوحة في العالم» (وتصادف أن كانت كلها موجودة عندهم في مخازنهم) ويعرضوها كلها على فورد. فبصفقة واحدة يستطيع أن يجعل نفسه أعظم جامع للوحات الفنية في العالم. وعملت المجموعة أسابيع متواصلة لإنتاج شيء رائع: هو مجموعة من ثلاثة مجلدات من الكتب الحاوية على نسخ من اللوحات، ونصوص لباحثين مختصين مرافقة لكل صورة. ثم قاموا بزيارة شخصية لفورد في منزله في ديربورن، بولاية ميشيغان. وهناك فوجئوا ببساطة بيته: لقد كان السيد فورد رجلاً غير متكلِّف ولا متصنِّع أبداً.

واستقبلهم فورد في غرفة مكتبته. وألقى نظرة على الكتاب فعبَّر عن ذهوله وفرحه. وبدأ البائعون المتحمسون يتخيَّلون ملايين الدولارات التي ستتدفق قريباً إلى خزائنهم. غير أن فورد رفع رأسه عن الكتاب في آخر الأمر وقال: «أيها السادة، إن كتباً جميلة كهذه، بصور ملوَّنة كهذه، لا بدّ أنها تكلِّف كثيراً!» وعندئذ صرخ دوفين: «ولكن يا سيد فورد! نحن لا نتوقع منك أن **تشتري** هذه الكتب! لقد رتبناها خصيصاً من أجلك، كي نريك الصور. فهذه الكتب هدية لك». وبدا فورد محتاراً، فقال: «أيها السادة، هذا شيء لطيف جداً منكم، ولكنني لا أرى كيف

أستطيع أن أقبل هدية جميلة ونفيسة كهذه من غرباء». فأوضح دوفين لفورد أن النسخ التي في الكتاب تُظهِرُ اللوحات التي كانوا يأملون أن يبيعوها له. وأخيراً فهم فورد قصدهم، فهتف: «أيها السادة، ولماذا أريد شراء الصور الأصلية ما دامت الصور الموجودة هنا في هذه الكتب في غاية الجمال؟».

التفسير

كان جوزيف دوفين يفتخر بأنه يدرس ضحاياه وزبائنه سلفاً، فيتفهم نقاط ضعفهم وخصائص أذواقهم قبل الالتقاء بهم أصلاً. وقد أرغمه اليأس على التخلي عن هذا التخطيط الانتهازي مرة واحدة فقط، في هجمته على هنري فورد. وقد استغرق شفاؤه من إساءة حكمه في هذه المرة شهوراً، سواء من الناحية العقلية أم المالية. فقد كان فورد من نمط الرجال البسطاء العاديين غير المدعين الذين لم يكونوا يستحقون العناء. فكان تجسيداً للناس ذوي العقلية الحرفية الذين لا يملكون خيالاً كافياً للانخداع. واعتباراً من ذلك الحين فصاعداً، أخذ دوفين يوفِّر طاقاته ليصرفها على أمثال ميلون ومورغان في هذا العالم ـ وهم رجال لديهم من المكر والبراعة ما يكفي لإيقاعهم في مصائده.

مفاتيح السلطة

إن القدرة على وزن الناس وتقويمهم ومعرفة مَنْ تتعامل معه هي واحدة من أهم المهارات في جمع السلطة والحفاظ عليها. فأنت بدونها أعمى. فلن تقتصر عندئذ على إيذاء الناس غير المقصودين بل إن الخطأ سيمتد إلى اختيارك للنماذج أو الأنماط التي تبذل الجهد في سبيل كسبها، وسوف تظن أنك تتملَّق الناس بينما أنت في الواقع تهينهم. فقبل أن تشرع في أي حركة، ادرس مقاييس هدفك أو خصمك المحتمل. وإلاَّ فسوف تضيِّع الوقت وترتكب أخطاء. ادرس نقاط ضعف الناس، والشقوق في دروعهم، ومناطق اعتزازهم وغرورهم ومناطق خوفهم

وشعورهم بعدم الأمن. اعرف مداخلهم ومخارجهم حتى قبل أن تقرر إن كنت ستتعامل معهم أم لا.

وكلمتان أخيرتان للتحذير: أولاً، في قياس خصومك والحكم عليهم، إياك أن تعتمد على غرائزك، إذ أنك سترتكب أعظم أخطائك كلها إذا اعتمدت على مثل هذه المؤشرات غير الدقيقة. فلا شيء يمكن أن يحل محل جمع المعرفة المادية. ادرس خصمك وتجسَّس عليه مهما استغرق ذلك من وقت. فسوف يثمر جهدك هذا على المدى الطويل.

وثانياً، لا تثق بالمظاهر أبداً، إذ أن أي شخص له قلب ثعبان يستطيع أن يستخدم مظهراً من العطف والكرم لتغطيته؛ والشخص الصاخب المتبجح في مظهره الخارجي كثيراً ما يكون في حقيقته جباناً. تعلَّم أن تستشف المظاهر لترى ما وراءها من تناقضات. وإياك أن تثق بالنسخة التي يقدمها الناس عن أنفسهم، فهي نسخة لا يمكن الاعتماد عليها مطلقاً.

صورة: الصياد، إنه لا ينصب للثعلب المصيدة نفسها التي ينصبها للذئب، فلا يضع طعماً في مكان لا يلتقطه فيه أحد. إنه يعرف فريسته معرفة كاملة، عاداتها، ومخابئها، ويصطاد بموجب هذه المعرفة.

obeikandl.com

الشاهد: اقتنع أنه لا يوجد أشخاص تصل بهم التفاهة والضآلة إلى درجة أنهم لن يكونوا قادرين على إفادتك. إذ أنهم لن يفيدوك بالتأكيد إن كنت قد عاملتهم باحتقار ذات مرة. فحالات الظلم قد تُسامَح. ولكن الاحتقار لن يسامَح إذْ أن عزَّة أنفسنا تجعلنا نتذكره إلى الأبد.

(اللورد تشسترفيلد، 1964-1773)

الانقلاب

ما هو الخير الممكن أن يأتي من الجهل بالناس الآخرين؟ تَعَلَّمْ أن تميِّز الأُسود عن الحملان، أو ادفع الثمن. أطع هذا القانون إلى امتداده بأبعاده الكاملة؛ فليس له حالة عكسية، ولا تكلف نفسك عناء البحث عن مثل هذه الحالة.